التّقدير : ومن يمدحه فحذفه لدلالة مَنْ المتقدّمة عليه[١] .

فإنّ الله يعلمه : يحصيه[٢] فيجازيكم عليه[٣]وقال الزّجّاج : يجازى عليه وقيل يحفظه[٤]ووحّد الضّمير وقد ذكر شيئين ، فقال النّحّاس : التّقدير : وما أنفقتم من نفقةٍ فإنّ الله يعلمها ، أو نذرتم من نذرٍ فإنّ الله يعلمه ثمّ حذف . ويجوز أن يكون التّقدير : وما أنفقتم فإنّ الله يعلمه وتعود الهاء على ما كما أنشد سيبويه لامرىء القيس :

فتوضِح فالمِقراة لم يَعْفُ رَسْمُها لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل

ويكون : أو نذرتم من نذرٍ معطوفاً عليه . قال ابن عطيّة : ووحّد الضّمير فى يعلمه وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذُكر أو نُصّ . قلت : وهذا حسن ، فإنّ الضّمير قد يراد به جميع المذكور وإن كثر[٥] .

وما للظّالمين : الّذين يمنعون الصّدقات أو ينفقون أموالهم فى المعاصى أو لا يفون بالنّذور أو ينذرون فى المعاصى[٦] .

من أنصار : ممّن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه[٧] والأنصار الأعوان جمع نصير كحبيب وأحباب وشريف وأشراف . أو ناصر كشاهد وأشهاد . وجاء جمعاً باعتبار أنّ ما قبله جمع كما جاء : وما لهم من ناصرين . والمفرد يناسب المفرد نحو : مالك من الله من وليٍّ ولا نصير[٨] .

نصت الآية الكريمة السّابقة على الحكمة الّتى يؤتيها الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده . وبالنّظر إلى ما يبدو لنا نحن البشر القاصرى النّظر آخذاً من الحكمة بنصيب يتبيّن أنّه ذو جانبين اثنين ، خارجىّ وداخلىّ ، ظاهرىّ وباطنىّ ، ويكاد علمنا نحن البشر يقف عند الجانب الخارجىّ أمّا الجانب الباطنىّ المتعلّق بالباعث الحقيقىّ على الإنفاق مثلاً وعمل الصّالحات وبنيّة مؤتَى الحكمة فإنّ علم كلّ ذلك عند الله تعالى وحده لا شريك له .

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٢٢

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٦١ وتفسير القرطبىّ ١١٣٩ والبحر المحيط ٢/٣٢٢

(٣) الجلالين

(٤)البحر المحيط ٢/٣٢٢

(٥) تفسير القرطبىّ ١١٣٩

(٦) الكشّاف ١/٣٠٠

(٧) الكشّاف ١/٣٠٠

(٨) البحر المحيط ٢/٣٢٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٦١

إنّ هذا الجانب الدّاخليّ أو الباطنيّ والعلم به على حقيقته هو ما عنيت به الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ما أنفقنا نحن البشر من نفقة فى السّرّاء والضّرّاء وما تصدّقنا به وزكّينا، وما أنفقنا فى وجوه البرّ ، وأنّ ما نذرنا من نذرٍ فوفينا به فى طاعةٍ أو حتّى فى معصيةٍ فإنّ الله سبحانه وتعالى يعلمه ويحيط به ويحفظه ، يعدّه ويحصيه ، وسيجازى كلّ واحدٍ منّا بناءً على نيّته وعمله . وكأن لسان الآية الكريمة يقول : إنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يقبل من الأعمال ما كان صالحاً موافقاً للشّرع الحكيم وخالصاً لوجهه الكريم جلّ وعلا فلا رياء ثمّة ولا سمعة . وكأنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : هب أنّك أيّها الإنسان الّذى بدت للنّاس على أقوالك وأفعالك مسحةٌ من الحكمة قد غششت هؤلاء النّاس وخدعتهم عن حقيقة نيّتك الّتى تريد بها المنفعة الذّاتيّة لشخصك ، فهل تظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى غير مطّلع على نيّتك وغير واقفٍ على دخيلتك وهو الّذى خلقك و لم تك من قبل شيئاً ويعلم ما توسوس به نفسك ؟ وكأن لسان حال الآية الكريمة يريد من الإنسان الّذى لم يرد بأعماله الصّالحة وجه ربّه الأعلى أن يعود فوراً إلى بارئه جلّ وعلا يستغفره ويتوب إليه ويريد بأعماله الصّالحة كلّها وجه ربّه الأعلى . وإنّ تذييل الآية الكريمة : ﴿ وما للظّالمين من أنصار ﴾ يهدّد الظّالمين الّذين وضعوا الأمور فى غير مواضعها بأنّهم إن استمرّوا فى طريقهم الخاطئ فإنّ حسابهم يوم القيامة عسير وعذابهم أليم وليس لهم من الله سبحانه وتعالى من أنصارٍ يدفعون عنهم العذاب الأليم والعقاب الشّديد . قال تعالى[١] : ﴿ الأخلاّء يومئذٍ بَعْضُهُمْ لبعضٍ عدوٌّ إلاّ المتّقين ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ واتّخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزّاً . كلاّ . سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّا ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ واتّخذوا من دون الله آلهةً لعلّهم يُنْصَرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جُنْدٌمُحْضَرون ﴾ .

---

(١) سورة الزّخرف ٦٧

(٢) سورة مريم ٨١ ، ٨٢

(٣) سورة يس ٧٤ ، ٧٥

الآيــة رقــم (٢٧١)

قال تعالى : ﴿ إن تبدوا الصّدقات فنعمّا هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ويكفّر من سيّئاتكم . والله بما تعملون خبير ﴾ .

إن تبدوا الصّدقات : إن تعلنوا الصّدقات[١] وتظهروها[٢] والمراد هنا صدقات التّطوّع دون الفرض ، وعليه جمهور المفسرين[٣] يقول القرطبيّ[٤] : « ذهب جمهور المفسرين إلى إنّ هذه الآية فى صدقة التّطوّع لأنّ الإخفاء فيها أفضل من الإظهار وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل فى تطوّعها لانتفاء الرّياء عنها ، وليس كذلك الواجبات . قال الحسن : إظهار الزّكاة أحسن وإخفاء التّطوّع أفضل ، لأنّه أدلّ على أنّه يراد الله عزّ وجلّ به وحده » وفى صحيح مسلم عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : أفضل صلاة المرء فى بيته إلاّ المكتوبة . وذلك أنّ الفرائض لا يدخلها رياء والنّوافل عرضةٌ لذلك . وروى النّسائى عن عقبة بن عامر أنّ رسول الله ﷺ قال : إنّ الّذى يجهر بالقرآن كالّذى يجهر بالصّدقة ، والّذى يسرّ بالقرآن كالّذى يسرّ بالصّدقة . وفى الحديث : صدقة السّرّ تطفئ غضب الرّبّ[٥] .

فنعمّا هى : نعم فعلٌ جامد بلفظ الماضى يستعمل لمدح الجنس على سبيل المبالغة ، والمقصود من ذلك الجنس يسمّى المخصوص بالمدح ، يذكر فى الأكثر بعد فاعلها ، ويعرب مبتدأ وهى وفاعلها خبرٌ عنه ، نحو : نعم القائدُ ابنُ الوليد[٦] فنِعمّا هى ثناءٌ على إبداء الصّدقة ، ثمّ حكم على أنّ الإخفاء خيرٌ من ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطنع إليك فانشره[٧] وحكى النّحويّون فى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٦١ (٢) الجلالين

(٣) البحر المحيط ٢/٣٢٣ (٤) تفسير القرطبىّ ١١٤٠

(٥) تفسير القرطبىّ ١١٤٠ وانظر تفسير ابن كثير ١/٣٢٢ و ٣٢٣

(٦) انظر هنا مثلاً شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢/١٢٧ والقواعد الأساسيّة للّغة العربيّة للسّيّد أحمد الهاشمىّ ص ٣٢٣ .

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٤٢

نِعْم أربع لغات : نَعِم الرّجل زيد . هذا الأصل . ونِعِمَ الرّجل ، بكسر النّون لكسر العين . ونَعْم الرّجل ، بفتح النّون وسكون العين ، والأصل نَعِمَ حذفت الكسرة لأنّها ثقيلة . ونِعْمَ الرّجل وهذا أفصح اللّغات . والأصل فيها نَعِم وهى تقع فى كلّ مدح ، فخفّفت وقلبت كسرة العين على النّون أوسكنت العين ، فمن قرأ : فنِعِمّا هى ، فله تقديران أحدهما أن يكون جاء به على لغة من يقول نِعِم . والتّقدير الآخر أن يكون على اللّغة الجيّدة فيكون الأصل نِعْم ، ثمّ كسرت العين لالتقاء السّاكنين[١] واختلف القرّاء فى قوله : فنعمّا هى . فقرأ أبو عمرو ونافع فى رواية ورش وعاصم فى رواية حفص وابن كثير فَنِعِمّا هِى ، بكسر النّون والعين . وقرأ أبو عمرو أيضاً ونافع فى غير رواية ورش وعاصم فى رواية أبى بكر والمفضّل فنِعْما بكسر النّون وسكون العين . وقرأ الأعمش وابن عامر وحمزة والكسائىّ فَنَعِمّا بفتح النّون وكسر العين وكلّهم سكّن الميم[٢] .

وبشأن ما يقول ابن عقيل مثلاً[٣] : « تقع ما بعد نعم وبئس فتقول : نعم ما ، أو : نِعِمّا ، وبئس ما ، ومنه قوله تعالى : إن تبدو الصّدقات فنِعِّما هِىَ . وقوله تعالى : بئسما اشتروا به أنفسهم . واختلف فى ما هذه فقال قوم : هى نكرةٌ منصوبة على التّمييز ، وفاعل نعم ضميرٌ مستتر ، وقيل : هى الفاعل ، وهى اسمٌ معرفة ، وهذا مذهب ابن خروف ، ونسبه إلى سيبويه » .

قال أبو علىّ : وما من قوله تعالى : نِعِمّا فى موضع نصب ، وقوله : هى : تفسيرٌ للفاعل المضمر قبل الذّكر ، والتّقدير : نعم شيئاً إبداؤها ، والإبداء هو المخصوص بالمدح إلاّ أنّ المضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه . ويدلّك على هذا قوله : فهو خيرٌ لكم ، أى الإخفاء خير . فكما أنّ الضّمير هنا للإخفاء لا للصّدقات فكذلك أوّلاً الفاعل هو للإبداء ، وهو الّذى اتّصل به الضّمير ، فحذف الإبداء وأقيم ضمير الصّدقات مثله[٤]

---

(١) تفسير القرطبى ١١٤٢

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٤٢ وانظر البحر المحيط ٣٢٣/٢

(٣) شرح ابن عقيل ١٣١/٢

(٤) تفسير القرطبىّ ١١٤٣

والتّقدير : نعم شيئاً أبداؤها[١] ولأنّ نعم فعلٌ لا يتصرّف احتيج فى الجواب إلى الفاء[٢] وهى مبتدأ على أحسن الوجوه ، وجملة المدح خبرٌ عنه ، والرّابط هو العموم الّذى فى المضمر المستكنّ فى نعم[٣] .

وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم : وإن تخفوها : وإن تستروها[٤] وتسرّوها[٥] وتعطوها الفقراء فى السّرّ[٦] وفيه تنبيهٌ على تطلّب مصارفها وتحقّق ذلك وهم الفقراء[٧] فهو خيرٌ لكم من إبدائها وايتائها الأغنياء[٨] والفاء جواب الشّرط ، وهو ضميرٌ عائدٌ على المصدر المفهوم من قوله : وإن تخفوها ، التّقدير : فالإخفاء خيرٌ لكم[٩] والظّاهر أنّ « خير » أفعل تفضيل والمفضّل عليه محذوف لدلالة المعنى عليه وهو الإبداء ، والتّقدير : فهو خيرٌ لكم من إبدائها[١٠] ويقول ابن كثير[١١] : « فيه دلالةٌ على أنّ إسرار الصّدقة أفضل من إظهارها لأنّه أبعد عن الرّياء إلاّ أن يترتّب على الإظهار مصلحةٌ راجحة من اقتداء النّاس به فيكون أفضل من هذه الحيثية » ثبت فى الصّحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : سبعةٌ يظلّهم الله فى ظلّة يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه ، إمامٌ عادل ، وشابٌ نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه ، ورجلٌ قلبه معلّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتّى يرجع إليه ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال : إنّى أخاف الله ربّ العالمين ، ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه[١٢] .

ويكفّر عنكم : « قال النّحّاس قال سيبويه : والرّفع ها هنا الوجه وهو الجيّد ، لأنّ الكلام الّذى بعد الفاء يجرى مجراه فى غير الجزاء . وأجاز الجزم بحمله على المعنى ، لأنّ

---

(١) الجلالين والبحر المحيط ٢/٣٢٤
(٢) البحر المحيط ٢/٣٢٣
(٣) البحر المحيط ٢/٣٢٤
(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/٦١
(٥) الجلالين
(٦) تفسير الطّبرىّ ٣/٦١
(٧) البحر المحيط ٢/٣٢٤
(٨) الجلالين
(٩) البحر المحيط ٢/٣٢٤
(١٠) البحر المحيط ٢/٣٢٤
(١١) تفسير ابن كثير ١/٣٢٢
(١٢) تفسير ابن كثير ١/٣٢٢

المعنى وإنّ تخفوها وتؤتوها الفقراء يكن خيراً لكم ونكفّر عنكم . وقال أبو حاتم : قرأ الأعمش يكفّر بالياء دون واو قبلها ..... والّذى روى عن عاصم ويكفّر بالياء والرّفع يكون معناه ويكفر الله ، هذا قول أبى عبيد . وقال أبو حاتم : معناه يكفّر الإعطاء . وقرأ ابن عبّاس وتُكفِّر ، يكون معناه وتكفّر الصّدقات . وبالجملة فما كان من هذه القراءات بالنّون فهى نون العظمة ، وما كان منها بالتّاء فهى الصّدقة فاعلمه ، إلاّ ما روى عن عكرمة من فتح الفاء فإنّ التّاء فى تلك القراءة إنّما هى للسّيّئات ، وما كان منها بالياء فالله تعالى هو المكفّر ، والإعطاء فى خفاءٍ مكفّرٌ أيضاً كما ذكرنا ، وحكاه مكّىّ . وأمّا رفع الرّاء فهو على وجهين : أحدهما أن يكون الفعل خبر ابتداء تقديره ونحن نكفّر أو وهى تكفّر ، أعنى الصّدقة ، أو والله يكفّر . والثّانى القطع والاستئناف لا تكون الواو العاطفة للاشتراك لكن تعطف جملة كلام على جملة »[١] .

من سيئاتكم : من للتبعيض لأنّ الصّدقة لا تكفّر جميع السّيّئات[٢] .

والله بما تعملون خبير : ذو خبرة وعلم لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك فهو بجميعه محيط ولكلّه محصٍ على أهله حتّى يوفّيهم ثواب جميعه وجزاء قليله وكثيره[٣] .

بعد أن بيّن السّياق الصّفات المُثْلى الّتى ينبغى أن يتحلّى بها المال المنفق فى سبيل الله تعالى والّتى تسبق الإنفاق من سلامة القصد وصحّة النيّة ، والّتى تتبع الإنفاق فلا منّ ولا أذى ، يتحوّل فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها إلى صفتين حسنتين تلازمان الإنفاق وتفضل إحداهما الأخرى . أمّا الطّريقة الأولى الحسنة الفاضلة فهى الّتى يعنيها قوله تعالى : ﴿ إن تبدو الصّدقات فنعمّا هى ﴾ والمعنى أنّكم يا من تنفقون أموالكم فى سبيل الله تعالى فى هيئة الصّدقات الّتى تقدّمونها للفقراء عن طيب نفسٍ ورضا خاطر إن تبدوا الصّدقات وتظهروها وتعلنوها فنعم شيئا إبداؤها ما دمتم تريدون بالصّدقة وبإبدائها وجه ربّكم الأعلى وحده لا شريك له ، خاصّةً إذا كنتم تقصدون من إعلان الصّدقة أن يقتدى بكم آخرون فيتصدّقوا بما يعود على الفقراء بالخير الوفير والفضل العميم .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٤٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٦٢/٣

(٢) البحر المحيط ٣٢٦/٢ (٣) تفسير الطّبرىّ ٦٣/٣

هذه هى الطّريقة الأولى الحسنة الفاضلة لإيتاء الصّدقة . ولكنّ ثمّة طريقةً أخرى أحسن وأفضل ، لأنّها تسلم من كلّ ما يصحّ أن يعرض للطّريقة الأولى بقصدٍ من المتصدّق كالتّطلّع إلى حسن الذّكر إضافةً إلى الطّمع فى ثواب الله تعالى ، وبغير قصدٍ كالحرج الّذى يجد الفقير نفسه فيه حينما يعلم أو يشعر بأنّ إيتاء المتصدّق صدقته وأخذه بدوره لها كان على علم من آخرين وبمرأًى ومسمعٍ منهم . إنّ أقلّ ما يعلق بإعلان الصّدقةً أن يشعر المتصدّق عليه بأنّه وقف موقف الآخذ وأنّ غيره وقف موقف المعطى وبأنّ يد المعطى هى العليا ، إنّ الآية الكريمة تبيّن هذه الطريقة الثّانية الأحسن والأفضل والأكرم وتنصّ على أنّها خيرٌ من الأولى . قال تعالى : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ﴾ ولا تقف الجزئيّة الكريمة عند تقرير أفضليّة الإخفاء على إبداء الصّدقات ، إنّما تتجاوز ذلك إلى النّصّ على الّذين يستحقّون هذه الصّدقات وهم الفقراء . حقّاً إنّ هؤلاء الفقراء مفهومون ضمنًا من تقرير الطّريقة الأولى ، ولكنّ النّصّ على هذه الفئة بشأن الطّريقة الثانية الأحسن والأكرم فيها التّعميق الضّمنىّ لما ينبغى أن يراعيه المتصدّق من شدّة التّحرّى والتّقصّى لأصحاب هذه الصّدقات ، وفيها التّلميح بأنّ ممّا يصح أن يؤذى طريقة الإيتاء الأولى أن يذهل معلن الصّدقة عن تحرّى أصحاب الصّدقات وذلك فى زحمة الملابسات الّتى قد تلازم إعلان الصّدقات منّ تجاوبٍ لنداءٍ بارعٍ من سائلٍ ربّما وجد من هو أحوج منه وأكثر استحقاقاً وهكذا وفى نصّ الآية الكريمة على الفقراء من بين الفئات الثّمان أصحاب الصّدقات تنبيهٌ من ناحية على أولى الفئات الثّمان بإيتاء الصّدقات وشمولٌ من ناحيةٍ أخرى للفئات الأخرى الّتى يتمّ التّحوّل إليها تباعاً وفق ترتيبها فى الآية الكريمة من سورة التّوبة قال تعالى[1] : ﴿ إنّما الصّدقات للفقراء والمساكينِ والعاملين عليها والمؤلّفةِ قلوبُهُمْ وفى الرّقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السّبيل فريضةً من الله . والله عليمٌ حكيم ﴾ .

وتقرّر الآية الكريمة فى التّذييل : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أن الله سبحانه

---

(١) سورة التّوبة ٦٠

ذو خبرةٍ ببواطن الأمور وظواهرها فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ من أعمال المخاطبين ونواياهم وسيجازى كلاً وفق عمله ونيّته .

الآيــة رقــم (٢٧٢)

قال تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدى من يشاء . وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم ، وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خيرٍ يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ .

ليس عليك هداهم : هذا الكلام متّصلٌ بذكر الصّدقات ، فكأنّه بيّن فيه جواز الصّدقة على المشركين . وقيل : ليس عليك هداهم ليس متّصلاً بما قبل فيكون ظاهراً فى الصّدقاتِ وصرفها إلى الكفّار ، بل يحتمل أن يكون معناه ابتداء كلام . قال علماؤنا : هذه الصّدقة الّتى أبيحت لهم حسب ما تضمّنته هذه الآثار هى صدقة التّطوّع ، وأمّا المفروضة فلا يجزىء دفعها لكافر لقوله عليه السّلام : أمرت أن آخذ الصّدقة من أغنيائكم وأردّها فى فقرائكم . قال ابن المنذر : أجمع كلّ من أحفظ عنه من أهل العلم أنّ الذّمّىّ لايُعْطَى من زكاة الأموال شيئاً . ثمّ ذكر جماعةً ممّن نصّ على ذلك و لم يذكر خلافاً . وقال أبو حنيفة : تصرف إليهم زكاة الفطر . قلت : وفى التّنزيل : ويطعمون الطّعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ، والأسير فى دار الإسلام لا يكون إلاّ مشركا . وقال تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم فى الدّين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ﴾ . فظواهر هذه الآيات تقتضى جواز صرف الصّدقات إليهم جملة ، إلاّ أنّ النّبىّ ﷺ خصّ منها الزّكاة المفروضة لقوله عليه السّلام لمعاذ : خذ الصّدقة من أغنيائهم وردّها على فقرائهم . واتفق العلماء على ذلك على ما تقدّم ، فيدفع إليهم من صدقة التّطوّع إذا احتاجوا . والله أعلم[1] وظاهر الهدى أنّه مقابل الضّلال وهو مصدر مضافٌ للمفعول ، أى ليس عليك أن تهديهم أى خلق الهدى فى قلوبهم . وأما الهدى

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٤٥ و ١١٤٦

بمعنى الدّعاء فهو عليه وليس بمرادٍ هنا[١] وعن ابن عبّاس عن النّبيّ ﷺ أنّه كان يأمر بألاّ يتصدّق إلاّ على أهل الإسلام حتّى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليك هداهم .... ﴾ إلى آخرها فأمر بالصّدقة بعدها على كلّ من سألك من كلّ دين[٢] .

وما تنفقوا من خير : الخير فى هذه الآية المال ، لأنّه قد اقترن بذكر الإنفاق ، فهذه القرينة تدلّ على أنّه المال ، ومتى لم تقترن بما يدلّ على أنّه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال نحو قوله تعالى : ﴿ خيرٌ مستقرّا ﴾ وقوله : ﴿ مثقالَ ذرّةٍ خيراً يره ﴾ إلى غير ذلك[٣] .

فلأنفسكم : فلا تمنّوا به ولا تؤذوا الفقراء[٤] .

وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله : أى ثوابه لا غيره من أعراض الدّنيا ، خبرٌ بمعنى النّهى[٥] بيّن تعالى أنّ النّفقة المعتدّ بقبولها إنّما هى ما كان ابتغاء وجهه[٦] وقيل : إنّه شهادةٌ من الله تعالى للصّحابة رضى الله عنهم أنّهم إنّما ينفقون ابتغاء وجهه . فهذا خرج مخرج التّفضيل والثّناء عليهم ، وعلى التّأويل هذا اشتراطٌ عليهم ، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمّة . قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقّاص : إنّك لن تنفق نفقةً تبتغى بها وجه الله تعالى إلاّ أُجِرْتَ بها حتّى ما تجعل فى فى امرأتك[٧] وانتصاب ابتغاء على أنّه مفعولٌ من أجله ، وقيل هو مصدرٌ فى موضع الحال تقديره مبتغين[٨] وعبّر بالوجه عن الرّضا كما قال : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ ، وذلك على عادة العرب . وتنزّه الله عن الوجه بمعنى الجارحة[٩] .

يُوَفَّ إليكم : تأكيدٌ وبيانٌ لقوله : وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم ، وأنّ ثواب الإنفاق يوفّى إلى المنفقين ولا يُبْخَسون منه شيئاً فيكون ذلك البخس ظلماً لهم[١٠]

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٢٦
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٢٣
(٣) تفسير القرطبىّ ١١٤٧
(٤) البحر المحيط ٢/٣٢٧
(٥) الجلالين
(٦) تفسير القرطبىّ ١١٤٧
(٧) تفسير القرطبىّ ١١٤٧ وانظر البحر المحيط ٢/٣٢٧
(٨) البحر المحيط ٢/٣٢٧ وانظر تفسير القرطبىّ ١١٤٧
(٩) البحر المحيط ٢/٣٢٧
(١٠) تفسير القرطبىّ ١١٤٧

ومعنى توفيته إجزال ثوابه[١] وجزاؤه[٢] وقد جاء قوله تعالى : ويربى الصّدقات ، وقوله ﷺ فى حديث أبى هريرة : إذا تصدّق العبد بالصّدقة وقعت فى يد الله قبل أن تقع فى يد السّائل فيربيّها كما يربّى أحدكم فلوه[٣] أو فصيلة حتّى إنّ اللّقمة لتصير مثل أحد[٤] .

انطلاقاً ممّا رواه ابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما أنّ النّبىّ ﷺ كان يأمر بألاّ يتصدّق إلاّ على أهل الإسلام حتّى نزلت هذه الآية الكريمة فأمر بالصّدقة بعدها على كلّ سائل من كلّ دين ، نستطيع أن نتبيّن علاقةً بين صدر الآية الكريمة هنا وبين مثل قوله تعالى[٥] : ﴿ إنّك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وقوله تعالى[٦] : ﴿ فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وعليه يكون معنى قوله تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدى من يشاء ﴾ ليس لزاماً عليك أيّها الرّسول الكريم هداية أولئك الّذين يصرّون على عدم اعتناق دين الإسلام الّذى بعثك الله تعالى به لأنّ خلق الهداية فى نفوس القوم وإيجادها فى قلوبهم ليس من عملك وليس فى مقدورك فعليك البلاغ وحده والدّعوة إلى الهدى أمّا الهادى إلى سواء السّبيل القادر على ذلك فهو الله سبحانه وتعالى الفعّال لما يريد الّذى لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . إنّك أيّها الرّسول الكريم الحريص على هداية النّاس أجمعين ليس فى مقدورك أن تحملهم على الدّخول فى الدّين الحقّ عن طريق قصر الصّدقات على المؤمنين وحدهم ، لأنّ منع الصّدقة عن غير المؤمنين لن يحملهم على الدّخول فى دينك إلاّ إذا شاء الله سبحانه وتعالى لهم ذلك ، وعليه يستوى فى حال المشيئة بدخولهم دينك إعطاؤهم من الصّدقات وعدم إعطائهم . وبما أنّ نظرة الإسلام إلى غير المسلم تنطلق من اعتباره أخاً فى الإنسانيّة

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٢٨ (٢) الجلالين

(٣) الفِلْو بكسر الفاء وسكون اللاّم وجمعه أفلاء وفلاء بكسر الفاء فى الثّانية ، والفَلُوّ بفتح الفاء وبضمّ اللاّم وتشديد الواو والفُلُوّ بضمّ الفاء واللاّم وتشديد الواو وجمعهما أفلاء وفلاوى ، فتح الفاء فى الثّانية : الجحش والمُهْر ، بضمّ الميم وسكون الهاء ، فُطما أو بلغا السّنة .

(٤) البحر المحيط ٢/٣٢٧ (٥) سورة القصص ٥٦

(٦) سورة الرّعد ٤٠

لذا صحّ فى الإسلام إعطاء غير المسلم من الصّدقات ومن زكاة الفطر وليس من الزّكاة الّتى تؤخذ من أغنياء المسلمين فتردّ على فقرائهم وحدهم . وإنّ هذه النّظرة الإسلاميّة السّامية إلى الأخ فى الإنسانيّة ذات علاقةٍ بالمؤلّفة قلوبهم الّذين يعطون فى الإسلام من الصّدقات بقصد تثبيتهم على الإيمان أو استمالة قلوبهم إليه . إنّ إعطاء الفقير غير المسلم من صدقة التّطوّع من قبيل استمالة القلوب إلى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده .

ووراء ذلك نستطيع أن نفهم معنًى إضافيًّا من قوله تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكّن الله يهدى من يشاء ﴾ وهو أنّ ربّ العزّة يخاطب المصطفى ﷺ بأنّه ليس عليه هدى المتصدّقين وليس فى حدود قدرته أن يرغمهم على أن تكون كلّ الملابسات المتعلّقة بالصّدقات سليمة ، وفى مقدّمتها أن يخفوا الصّدقة وأن يتحرّوا إيتاءها مستحقّيها من الفقراء .

وهذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم ﴾ تقرّر أنّ ثواب ما ينفق المنفقون والمتصدّقون عائدٌ عليهم فلماذا لا يعملون كلّ ما يعملون من الأسباب الّتى تجعل ثوابهم كاملاً غير منقوص ، وقد أفاضت الآيات الكريمات فى بيان هذه الأسباب .

وهذه الجزئية الكريمة : ﴿ وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله ﴾ كأنّها تخبر بالطّريقة المثلى الّتى ينبغى أن يكون فيها الصّدقة بأن يراد بها وجه الله تعالى وحده لا شريك له ، وكأنّ الجزئيّة الكريمة تأمر بذلك ، وكأنّ الجزئية تبيّن أهم مظاهر الهداية إلى الطّريقة المثلى فى تقديم الصّدقات الّتى نبّهت عليها الجزئية الكريمة السّابقة ، وكأن الجزئية الكريمة تخاطب أساساً الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم فى مجال التّقرير لنعتٍ من نعوتهم الّتى لا يأتى عليها الحصر ، ومن هذه النّعوت المتعلّقة بالنّفقات وبالصّدقات أنّهم إنّما ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله تعالى ومرضاته جلّ وعلا وحده لا شريك له . وينبغى أن يكون لاستعمال لفظ الوجه فى حقّ الذّات العليّة بمعنى رضاه جلّ وعلا دوره اللّطيف فى إضفاء الجميل من المعانى على السّياق فى الآية الكريمة بسبب ما يتعلّق فى استعمالاتنا وفى كلامنا بالوجه من معانى الرّضا والسّرور ، البشر والحبور ، حينما يكون جوّ الكلام ومحيط الحديث على غرار الآية الكريمة عابقاً بشذا الرّضا والمحبّة فواحاً بعطر الانشراح

والحنان . قال عزّ من قائل[١] : ﴿ ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع العليم ﴾ .

وإذا كان هذا القول : ﴿ وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله ﴾ قوّةً للقول قبله وتوجيهاً : ﴿ وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم ﴾ فإنّ الجزئيّة الكريمة الأخيرة قوّةٌ هى الأخرى وتوجيه وإرشادٌ وتسديد : ﴿ وما تنفقوا من خيرٍ يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ وتضيف هذه الجزئيّة الأخيرة الجديد من المعانى إلى القول : ﴿ وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم ﴾ فثمّة توفيةٌ لجميل الثّواب وجميل الجزاء ، وثمّة نفىٌ لأدنى ظلمٍ بحذف حسنة أو إضافة سيّئة وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة . وإن تَكُ حسنةً يضاعِفْها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيما ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٧٣)

قال تعالى : ﴿ للفقراء الّذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون النّاس إلحافا ، وما تنفقوا من خيرٍ فإنّ الله به عليم ﴾ .

للفقراء : اللاّم متعلّقة بقوله : ﴿ وما تنفقوا من خير ﴾ ، وقيل بمحذوف تقديره الإنفاق أو الصّدقة للفقراء[٣] قال السّدّىّ ومجاهد وغيرهما : المراد بهؤلاء الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم . ثمّ تتناول الآية كلّ من دخل تحت صفة الفقر غابر الدّهر . وإنّما خصّ فقراء المهاجرين بالذّكر لأنّه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصّفة وكانوا نحواً من أربعمائة رجل ، وذلك أنّهم كانوا يقدُمون فقراء على رسول الله ﷺ وما لهم أهلٌ ولا مال ، فبنيت لهم صُفّة فى مسجد رسول الله ﷺ فقيل لهم أهل الصّفّة[٤] قال أبو ذرّ : كنت من أهل الصّفّة وكنّا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله

---

(١) سورة الشّورى ١١ (٢) سورة النّساء ٤٠

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٤٧

(٤) صفّة المسجد النبوىّ الشّريف سقيفته.الكشاف ٣٠١/١ والموضع المظلّل من مسجده ﷺ . القاموس .

ﷺ فيأمر كلّ رجلٍ فينصرف برجلٍ ويبقى من بقى من أهل الصّفّة عشرة أو أقلّ فيؤتى النّبىّ ﷺ بعشائه ونتعشّى معه . فإذا فرغنا قال رسول الله ﷺ : ناموا فى المسجد(١) وخرّج التّرمذىّ عن البراء بن عازب : ﴿ ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ﴾(٢) قال : نزلت فينا معشر الأنصار كنّا أصحاب نخلٍ قال : فكان الرّجل يأتى من نخله على قدر كثرته وقلّته وكان الرّجل يأتى بالقُنو (٣) والقنوين فيعلّقه فى المسجد ، وكان أهل الصّفّة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فيضربه بعصاه فيسقط من البُسْر والتّمر فيأكل(٤) .

الّذين أحصروا فى سبيل الله : حُبِسوا ومُنِعوا . قال قتادة وابن زيد : معنى أحصروا فى سبيل الله ، حبسوا أنفسهم عن التّصرّف فى معايشهم خوف العدوّ ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ﴾(٥) أى حبسوا أنفسهم على الجهاد(٦) ومعنى الإحصار تصيير الرّجل المُحْصَر بمرضه أو فاقته أو جهاده عدوّه وغير ذلك من علله إلى حالة يحبس نفسه فيها عن التّصرّف فى أسبابه(٧) وقيل هم أصحاب الصّفّة وهم نحوٌ من أربعمائة رجلٍ من مهاجرى قريشٍ لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر ، فكانوا فى صفّة المسجد وهى سقيفته يتعلّمون القرآن باللّيل ويرضخون النّوى بالنّهار ، وكانوا يخرجون من كلّ سريّة بعثها رسول ﷺ(٨) .

لا يستطيعون ضرباً فى الأرض : لكون البلاد كلّها كفراً مطبقاً ، وهذا فى صدر الإسلام . فقلّتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد . وإنكار الكفّار عليهم إسلامهم يمنع من

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٤٨ وانظر تفسير الطّبرىّ ٦٤/٣ وتفسير ابن كثير ٣٢٤/١

(٢) الآية ٢٦٧ من سورة البقرة

(٣) القنو بكسر القاف وبضمّها : العذق وهو من النّخل كالعنقود من العنب .

(٤) تفسير القرطبىّ ١١٤٨

(٥) تفسير القرطبىّ ١١٤٨

(٦) الجلالين

(٧) تفسير الطّبرىّ ٦٤/٣ وانظر البحر المحيط ٣٢٨/٢

(٨) الكشّاف ٣٠١/١

التّصرّف فى التّجارة فبقوا فقراء[١] والمعنى لا يستطيعون تقلّباً فى الأرض وسفراً فى البلاد ابتغاء المعاش وطلب المكاسب فيستغنوا عن الصّدقات رهبة العدوّ وخوفاً على أنفسهم منهم[٢] والضّرب فى الأرض هو السّفر . قال الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصّلاة ﴾ وقال تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾[٣] .

يحسبهم : يظنّهم[٤] وفتح السّين وكسرها فى يحسبهم لغتان . قال أبو علىّ : والفتح أقيس ، لأنّ العين من الماضى مكسورة ، فبابها أن تأتى فى المضارع مفتوحة . والقراءة بالكسر حسنة لمجىء السّمع به وإن كان شاذّاً عن القياس[٥] .

الجاهل : بأمرهم وحالهم[٦] .

أغنياء من التّعفّف : مستغنيين من أجل تعفّفهم عن المسألة[٧] أى الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعفّفهم فى لباسهم وحالهم ومقالهم . وفى هذا المعنى الحديث المتّفق على صحّته عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليس المسكين بهذا الطّوّاف الّذى تردّه التّمرة والتّمرتان واللّقمة واللّقمتان والأكلة والأكلتان ولكنّ المسكين الّذى لا يجد غِنىً يغنيه ولا يفطن له فيتصدّق عليه ولا يسأل النّاس شيئاً . وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضاً[٨] أى أنّهم من الانقباض وترك المسألة والتّوكّل على الله بحيث يظنّهم الجاهل بهم أغنياء[٩] ومن فى قوله من التّعفّف لابتداء الغاية وقيل لبيان الجنس[١٠]

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٤٨ وانظر البحر المحيط ٣٢٨/٢ وفى الأخير : «وثبت من اللّغة ..... أنّه يقال فى كلّ منهما (المرض والعدوّ) أحصر وحصر وحكاه ابن سيده » .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٦٥/٣ (٣) تفسير ابن كثير ٣٢٤/١

(٤) تفسير القرطبى ١١٤٩ (٥) تفسير القرطبى ١١٤٩

(٦) تفسير الطّبرىّ ٦٥/٣ وتفسير ابن كثير ٣٢٤/١ والكشّاف ٣٠١/١ والبحر المحيط ٣٢٨/٢

(٧) الكشاف ٣٠١/١

(٨) تفسير ابن كثير ٣٢٤/١ وانظر الحديث فى تفسير القرطبىّ ١١٥٠

(٩) تفسير القرطبى ١١٤٩ (١٠) تفسير القرطبىّ ١١٤٩

وقيل سببيّة أى الحامل على حسبانهم أغنياء هو تعفّفهم لأنّ عادة من كان غنيّ مال أن يتعفّف ولا يسأل . وهذا على أنّهم متعفّفون عفّةً تامّةً عن المسألة وهو الّذى عليه جمهور المفسّرين(١) .

والتّعفّف تفعّل من العفّة وهو بناء مبالغة من عفّ عن الشّئ إذا أمسك عنه وتنزّه عن طلبه ، وبهذا فسر قتادة وغيره(٢) والعفّة عن الشّىء تركه كما قال رؤبة :

فعفّ عن أسرارها بعد الغسق

يعنى برىء وتجنّب(٣) .

تعرفهم : يا محمّد(٤) .

بسيماهم : يعنى بعلامتهم وآثارهم من قول الله عزّ وجلّ : سيماهم فى وجوههم من أثر السّجود . هذه لغة قريش . ومن العرب من يقول بسيمائهم فيمدّها . وأمّا ثقيف وبعض أسدٍ فإنّهم يقولون : بسيميائهم ومن ذلك قول الشّاعر :

غلامٌ رماه الله بالحسن يافعاً   له سيمياء لا تشقّ على البصر(٥)

أى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى : ﴿ سيماهم فى وجوههم ﴾ وفى الحديث الّذى فى السّنن : اتّقوا فِراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله . ثمّ قرأ : إنّ فى ذلك لآياتٍ للمتوسّمين(٦) والمتوسّمون النّاظرون المعتبرون(٧) وقد اختلف العلماء فى تعيين السّيما هنا ، فقال مجاهد : هى الخشوع والتّواضع . السّدّى : أثر الفاقة والحاجة فى وجوههم وقلّة النّعمة . ابن زيد رَثاثة ثيابهم . وقال قومٌ وحكاه مكّىّ : أثر السّجود . ابن عطيّة : وهذا حسنٌ وذلك لأنّهم كانوا متفرّغين متوكّلين لا شغل لهم فى الأغلب إلاّ الصّلاة فكان أثر السّجود عليهم . قلت : وهذه السّيما الّتى هى أثر السّجود اشترك

(١) البحر المحيط ٣٢٨/٢

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٤٩ والبحر المحيط ٣١٦/٢

(٣) تفسير الطّبرىّ ٦٥/٣

(٤) تفسير الطّبرىّ ٦٥/٣ وانظر البحر المحيط ٣٢٩/٢

(٥) تفسير الطّبرىّ ٦٥/٣ وانظر البحر المحيط ٣١٦/٢

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٣٢٤/١   (٧) الجلالين

فيها جميع الصحّابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى فى آخر الفتح بقوله :﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السّجود ﴾ . فلا فرق بينهم وبين غيرهم فلم يبق إلاّ أن تكون السّيماء أثر الخصاصة والحاجة ، أو يكون أثر السّجود أكثر ، فكانوا يعرفون بصفرة الوجوه من قيام اللّيل وصوم النّهار . والله أعلم . وأمّا الخشوع فذلك محلّه القلب ويشترك فيه الغنّى والفقير فلم يبق إلاّ ما اخترناه والموفّق الإلٰـه[١] وفى الجلالين : بسيماهم من التّواضع وأثر الجهد . وفى الكشّاف[٢] : «من صفرة الوجه ورثاثة الحال» .

لا يسألون النّاس إلحافا : اللاّم والحاء والفاء أصلٌ يدلّ على اشتمال وملازمة . يقال : التحف باللِّحاف يلتحف . ولا حَفَهَ : لازمه . وألحف السّائل : ألحّ[٣] يقال : قد ألحف السائل فى مسألته إذا ألحّ فهو يلحف فيها إلحافاً[٤] وإلحافاً مصدر فى موضع الحال أى ملحفين . يقال : ألحف وأحفى وألحّ فى المسألة سواء . ويقال .

وليس للملحف مثل الرّدّ[٥]

واشتقاق الإلحاف من اللّحاف سمّى بذلك لاشتماله على وجوه الطّلب فى المسألة كاشتمال اللّحاف من التّغطية . أى هذا السّائل يعمّ النّاس بسؤاله فيلحفهم[٦] واختلف العلماء فى معنى قوله : ﴿ لا يسألون النّاس إلحافاً ﴾ على قولين . فقال قومٌ منهم الطّبرىّ[٧] والزّجّاج : إنّ المعنى لا يسألون البتّة ، وهذا على أنّهم متعفّفون عن المسألة عفّةً تامّة . وعلى هذا جمهور المفسّرين . ويكون التّعفّف صفةً ثابتةً لهم ، أى لا يسألون

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٤٩ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٦٥

(٢) ١/٣٠١

(٣) معجم مقاييس اللّغة « لحف » ٥/٢٣٨

(٤) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٦

(٥) البيت من أرجوزة بليغةٍ لبشّار بن برد الشّاعر الأموىّ العباسىّ فى مدح عقبة بن سَلْم مطلعها :

يا طلل الحىّ بذات الصَّمْد بالله حدّث كيف كنتَ بعدى

انظر ديوان بشار ٢/٢١٨ والأغانى الدّار ٣/١٧٥ : « بالله خَبِّر » رواية الأغانى .

(٦) تفسير القرطبى ١١٥٠ وانظر البحر المحيط ٢/٣١٦

(٧) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٦

النّاس إلحاحاً ولا غير إلحاح . وقال قوم : إنّ المراد نفى الإلحاف ، أى إنّهم يسألون غير إلحاف ، وهذا هو السّابق للفهم أى يسألون غير ملحفين . وفى هذا تنبيهٌ على سوء حالة من يسأل النّاس إلحافا[١] .

والإلحاف : الإلحاح واللّجاج فى السّؤال ويقال : ألحف وأحفى[٢] ويقول أبو حيّان[٣] : ﴿ لا يسألون النّاس إلحافاً ﴾ : إذا نفى حكم عن محكومٍ عليه بقيدٍ فالأكثر فى لسان العرب انصراف النّفى لذلك القيد فيكون المعنى على هذا ثبوت سؤالهم ونفى الإلحاح أى وإن وقع منهم سؤالٌ فإنّما يكون بتلطّف وتستّر لا بإلحاح ، ويجوز أن ينفى ذلك الحكم فينتفى ذلك القيد فيكون على هذا نفى السّؤال ونفى الإلحاح فلا يكون النّفى على هذا منصبّاً على القيد فقط . قال ابن عبّاس لا يسألون إلحافاً ولا غير إلحاف » . ويحتمل أن تكون هذه الجملة حالاً وأن تكون مستأنفة . وجوّزوا فى إعراب إلحافاً أن يكون مفعولاً من أجله وأن يكون مصدراً لفعلٍ محذوف دلّ عليه يسألون ، فكأنّه قال : لا يلحفون ، وأن يكون مصدراً فى موضع الحال تقديره لا يسألون ملحفين[٤] .

المجتمع المسلم فى المدينة المنوّرة كان يتألّف فى عهد المصطفى ﷺ ونزول الوحى من الأنصار سكّان المدينة المنوّرة الأصليّين ومن المهاجرين . وبالنّظر إلى الآية الكريمة السّابقة يتبيّن أنّ هذه الجزئيّة الكريمة منها : ﴿ وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله ﴾ تمتدّ أبعادها وتصل مراميها فيما تصل إلى الأنصار الّذين كانوا أصحاب زرعٍ وميسورى الحال فى مجموعهم وكأنّ هذه الجزئيّة الكريمة تثنى على الأنصار ابتداءً الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله تعالى ، والمعروف أنّ المهاجرين الّذين تركوا بلدهم وأموالهم كانوا فى مجموعهم فقراء وكانوا موضع حفاوةٍ بالغةٍ من الأنصار . وهذه الجزئيّة الكريمة الّتى تثنى على الأنصار تأخذ بسببٍ من مثل قوله تعالى[٥] : ﴿ والّذين تبوّءوا الدّار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم

---

(١) تفسير القرطبى ١١٥٠
(٢) البحر المحيط ٣١٦/٢
(٣) البحر المحيط ٣٢٩/٢
(٤) البحر المحيط ٣٣٠/٢
(٥) سورة الحشر ٩

ولو كان بهم خَصاصة ، ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ والمعروف أنّ الآية الكريمة السّابقة من سورة الحشر تخصّ أولئك المهاجرين . قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الّذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ وإذا كانت الآية الكريمة السّابقة من سورة البقرة قد شملت الأنصار فيمن شملت فإنّ هذه الآية الكريمة التّالية تشمل المهاجرين . وكأن صدر الآية الكريمة يُرْبط بعجز الآية الكريمة السّابقة على مثل هذا النّحو : وما تنفقوا من خيرٍ للفقراء الّذين أحصروا فى سبيل الله . ووراء ذلك فى الآية الكريمة توجيهٌ للصّدقات بأنّها يجب أن تعطى لمستحقّيها ابتداءً بالفقراء .

وهؤلاء المهاجرون الفقراء جيباً الأغنياء بالإسلام نفساً يقومون بأهمّ الأعمال الإيجابيّة وهى الجهاد فى سبيل الله تعالى . والعجيب فى أمر هؤلاء الفقراء المهاجرين وهم عماد أهل الصّفّة أى السّقيفة فى المسجد النّبوىّ الشّريف أنّهم جمعوا بين أجلّ الأعمال وأشرفها . إنّهم باختصار رهبانٌ باللّيل فرسانٌ بالنّهار ، ملأوا ليلهم بتلاوة القرآن الكريم وبالعبادة ، وملأوا نهارهم ، بل نذروا نفوسهم للجهاد فى سبيل الله تعالى ، بمعنى أنّه حينما ينادى داعى الجهاد يكونون أوّل الملبّين الباذلين أرواحهم رخيصةً فى سبيل الله تعالى . ولا يتعارض ما نذر أهل الصّفة وسواهم له نفوسهم من أعمالٍ يبتغون بها وجه الله تعالى من جهادٍ فى سبيله وعبادةٍ لله تعالى وتلاوة للقرآن الكريم مع ما يتسنّى لهم القيام به من أعمالٍ شريفةٍ مثل رضخ النّوى وتهيئته علفاً للحيوان .

وهؤلاء الفقراء المهاجرون ، وعمادهم أهل الصّفّة قد حبسوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله تعالى وحبسهم الصّبر والمصابرة والمرابطة فى سبيل الله تعالى وخوف عدوّ الله تعالى وعدوّهم عن أن يضربوا فى الأرض ويسافروا فيها ابتغاء فضل الله تعالى وسعياً وراء الرّزق ولقمة العيش ، وقد جاء فى الضّرب فى الأرض مثل قوله تعالى خطاباً للمصطفى ﷺ فى سورة المزّمّل[1] : ﴿ إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثى اللّيل ونصفه

---

(١) الآية ٢٠

وثلثه وطائفةٌ من الّذين معك . والله يقدّر اللّيل والنّهار . علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسّر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسّر منه ﴾ إنّ هؤلاء المهاجرين من أهل الصّفّة يقرأون القرآن الكريم ويرابطون فى سبيل الله تعالى ويجاهدون وبذلك أحصرهم العدوّ عن الضّرب فى الأرض ابتغاء فضل الله تعالى ، فهل كان أولئك المهاجرون من أهل الصّفّة من الكثرة للدّرجة الّتى يستطيعون أن يتّخذوا من الجهاد فى سبيل الله تعالى مصدراً للرّزق ؟ الجواب بالنّفى . إنّهم لم يكونوا من الكثرة للدّرجة الّتى يستطيعون معها اتّخاذ الجهاد فى سبيل الله تعالى مصدراً للرّزق خاصّةً إذا عرفنا أنّ المجتمع المسلم آنذاك يكاد ينحصر وجوده فى المدينة المنوّرة وأنّ بلاد العرب تموج بالكفر ومن باب الأولى غير بلاد العرب ، إنّ هذه المعانى نبّه عليه قوله تعالى : ﴿ للفقراء الّذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ﴾ .

وهؤلاء المهاجرون المجاهدون فى سبيل الله تعالى يجمعون إلى علوّ الهمم نفوساً كبيرةً عفيفة ، فمع قلّة ذات اليد فإنّهم وقد أدبهم الإسلام وربّاهم التّربية الحقّة تأبى نفوسهم الكبيرة وهممهم العالية أن يمدّوا يدهم إلى عبدٍ من عباد الله تعالى . وإنّ النّاس بنصّ الآية الكريمة تجاه هؤلاء المهاجرين أغنياء النّفوس فريقان غير المستعدّ لأن يرقى إلى فهم حقيقة هؤلاء المجاهدين أصحاب النفوس الكبيرة والمستعدّ لأن يفهم حقيقتهم بسبب النّور الّذى أودعه الله تعالى بصيرته فهو ينظر به ويصل عن طريقه إلى أعماق نفوس هؤلاء المهاجرين الفقراء مروراً بثيابهم الرّثّة وإن كانت نظيفة ، وألوانهم الشّاحبة وإن تلألأت الأنوار فى أسارير وجوههم انطلاقاً من طمأنينة الرّضا بقضاء الله تعالى ، وبهجة السّعادة للثّواب الّذى وعدهم الله تعالى إيّاه فى القرآن الكريم وعلى لسان خير الأنام . وإنّ الآية الكريمة لتنصّ على كلٍّ من هذين الفريقين . فمع الفريق الأوّل الجاهل غير العالم قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفّف ﴾ والمعنى : يحسبهم الجاهل بحالهم الغافل عن أمرهم أغنياء الجيب من التّعفّف وبسبب التّرفّع عن مدّ اليد بالسّؤال . وأوّل ما يلفت النّظر بشأن الجزئيّة الكريمة أنّها تتعامل مع هذا الفريق الجاهل أو الفرد الجاهل باعتباره غائباً

وغير موجود : ﴿ يحسبهم الجاهل ﴾ وإنّ الإعجاز المعنوىّ فى الجزئيّة الكريمة يتجلّى فى كون كلّ من يقرأ الجزئيّة الكريمة أو يسمعها يفهم أنّ الجاهل غائبٌ غير حاضر ، بمعنى أنّ الجاهل غير الشّخص الّذى يتلو القرآن الكريم أو يتلى عليه ، بينما يصحّ أن يكون هذا الشّخص الحاضر أشدّ الغافلين وأكبر الجاهلين ، ولكنّه الأسلوب القرآنى الّذى يقرؤه كلّ شخصٍ فيفهم منه كلّ معنًى حسنٍ مهما كان مستوى المتعامل مع القرآن الكريم من رفعة المستوى وعلوّ الثقافة . إنّ هذا الفريق الجاهل وهذا الفرد الجاهل بمعنى الغافل وبمعنى غير الفطن وبمعنى الغبىّ وبمعنى قصير النّظر والإدراك وما إلى ذلك من صفات ، يقف علمه عند ظواهر الأمور ، فبما أنّ الفقير المحتاج لم يسأل بصريح اللّفظ فذلك معناه أنّه غنىٌّ غير محتاج وإن نطقت كلّ ملامحه بكلّ لسان بسوء الحال . إنّ هذا الفريق أو الشّخص ليس فى مستوى فهم لسان الحال الّذى هو أبلغ من لسان المقال والّذى يفهمه جيّداً الفريق الثّانى من النّاس . فلنتحوّل إلى نصيب هذا الفريق الآخر فى الآية الكريمة . قال تعالى : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ .

ومع أنّ الخطاب هنا أساساً للمصطفى ﷺ فإنّه وراء ذلك متّجهٌ إلى كلّ فردٍ من أفراد أمّة الإسلام . ولعلّنا لاحظنا الفرق الكبير بين التّعبير هنا عن هذا الفريق الّذى يخاطب كلّ فردٍ من أفراده وجهاً لوجه وبين التّعبير فى الجزئيّة الكريمة السّابق الّذى يتحدّث عنه باعتباره غائباً ، لأنّه وإن كان حاضراً جسداً فإنّه غائبٌ حقيقةً ووجوداً .

إنّ كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلامية يفهم أنّه هو المعنىّ بقوله تعالى : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ والمعنى أنّك أيّها الذّكىّ الألمعىّ ، المؤمن التّقىّ النّقىّ الخاشع الورع ، يا من تنظر بنور الله تعالى ، حينما تقع عيناك على هؤلاء المجاهدين فى سبيل الله تعالى يغنيك لسان حالهم عن لسان مقالهم ، إنّك تجد فى رثاثة ثيابهم وشحوب ألوانهم الدّليل على فقر جيوبهم رغم تجمّلهم بالصّبر وتجلّدهم للشّدائد ، وإنّك تجد فى علامات الإيمان الّتى تشرق بها وجوههم ودلائل الخشوع والتّقوى الّتى تلمع بها أسارير وجوههم الأدلّة الأكيدة على إيمانهم القوىّ وعلى صدقهم فى الصّبر والمصابرة والجهاد فى سبيل الله تعالى ، وعلى صدقهم ما عاهدوا الله تعالى عليه . وتسخو نفس هذا الألمعىّ الّذى يظنّ الظّنّ

فكأنه قد رأى وقد سمع بالبذل فى سبيل الله تعالى ، وتجود بذات اليد لأولئك الأغنياء النّفوس ، ويصدق حدس ذلك الألمعىّ الّذى ربّما قدّم على استحياء بيمينه ما لم تعلم به شماله ويقبل أغنياء النّفوس ما يعطى لهم .

إن هؤلاء العفيفى النّفوس لم يمدّوا يدهم بالسؤال ابتداءً ، وربّما أغرى بعضهم بالسّؤال أصحابُ النّفوس الكريمة الّذين أعطوهم من قبل دون أن يسألوا ، وربّما لا يغريهم ذلك بالسّؤال مطلقاً . أمّا عدم السّؤال فلأنهم أغنياء النّفوس ، وامتداداً لغنى النّفوس فإنّ من سأل منهم سأل على استحياء و لم يلحف فى سؤاله و لم يُخْف . إنّه يكتفى بالتّلميح وربّما تجاوزه إلى التّصريح المليح غير القبيح . ولعلّ نور بصائرهم يهديهم لسؤال من هو عند حسن ظنّهم به وحسن ظنّه بهم .

والجزئيّة الكريمة : ﴿ وما تنفقوا من خيرٍ فإنّ الله به عليم ﴾ ذات الشّبه فى صدرها بالجزئيّة الكريمة الأخيرة فى الآية السّابقة : ﴿ وما تنفقوا من خيرٍ يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ تنظر إلى الإنفاق فى سبيل الله تعالى من زاويةٍ جديدة ، فتقرّر أنّ ما ينفق العباد من خيرٍ ، وينبغى أن يكون ذلك الخير فى سبيل الله تعالى ، فإنّ الله سبحانه وتعالى به عليم ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، ولا يخفى عليه جلّ وعلا نيةُ المنفق والباعث له على الإنفاق ومقدار ما أنفق وموضع الإنفاق ، إنّ الله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا فى صيغة المبالغة ، بكلّ ذلك فمجازٍ عليه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم . ومن البيّن أنّ من أولى الأوجه بالإنفاق الثّغور والمجاهدين فى سبيل الله تعالى تحقيقاً للمعانى السّامية الّتى ألمحت إليها الآية الكريمة وهذه الآية الكريمة الأخيرة من سورة آل عمران . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلّكم تفلحون ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٧٤)

قال تعالى : ﴿ الّذين ينفقون أموالهم باللّيل والنّهار سرّاً وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سبب النّزول :

روى عن ابن عبّاس وأبى ذرّ وأبى أمامة وأبى الدّرداء وعبد الله بن بشر الغافقىّ والأوزاعىّ ومكحول ورباح بن بريد أنّها نزلت فى علف الخيل المربوطة فى سبيل الله[١] وكان أبو هريرة إذا مرّ بفرسٍ سمين قرأ هذه الآية[٢] وذكر ابن سعدٍ فى الطّبقات أنّ رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى : ﴿ الّذين ينفقون أموالهم باللّيل والنّهار سرّاً وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ قال : هم أصحاب الخيل . وبهذا الإسناد قال : قال رسول الله ﷺ : المنفق على الخيل كباسط يده بالصّدقة لا يقبضها ، وأبوالها وأرواثها يوم القيامة كذكىّ المسك[٣] وقال ابن عبّاسٍ أيضاً نزلت فى علىّ بعث بوسق تمر إلى أهل الصّفة ليلاً وفى عبد الرحمن بن عوفٍ بعث إليهم بدراهم كثيرةٍ نهاراً[٤] ويقول أبو حيّان[٥] : « والآية وإن نزلت على سببٍ خاصّ فهى عامة فى جميع ما دلّت عليه ألفاظ الآية » .

باللّيل : الباء ظرفيّة[٦] ويقول القرطبىّ[٧] : « ومعنى باللّيل والنّهار ، فى اللّيل والنّهار » .

سرّاً وعلانيّة : انتصاب سرّاً وعلانيةً على أنّهما مصدران فى موضع الحال أى مسرّين ومعلنين أو على أنّهما حالان من ضمير الإنفاق على مذهب سيبويه[٨] وإنّ النّفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضاً كما ثبت فى الصحّيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقّاص حين عاده مريضاً عام الفتح ، وفى رواية عام حجّة الوداع : وإنّك لن تنفق نفقةً تبتغى بها وجه الله إلاّ ازددت بها درجةً ورفعةً حتّى ما تجعل فى فى امرأتك[٩] وروى

---

(١) تفسير القرطبى ١١٥٤ والبحر المحيط ٣٣٠/٢ وتفسير ابن كثير ٣٢٦/١

(٢) البحر المحيط ٣٣٠/٢ (٣) تفسير القرطبىّ ١١٥٤

(٤) البحر المحيط ٣٣١/٢ وانظر تفسير ابن كثير ٣٢٦/١

(٥) البحر المحيط ٣٣١/٢ (٦) البحر المحيط ٣٣١/٢

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٥٥ (٨) البحر المحيط ٣٣١/٢

(٩) تفسير ابن كثير ٣٢٥/١

الإمام أحمد والبخاريّ ومسلم عن النّبيّ ﷺ أنّه قال : إنّ المسلم إذا أنفق على أهله نفقةً يحتسبها كانت له صدقة[١] .

فلهم أجرهم عند ربّهم : دخلت الفاء فى قوله تعالى : فلهم لأنّ فى الكلام معنى الجزاء[٢] ويقول أبو حيّان[٣]« ودخلت الفاء فى فلهم لتضمّن الموصول معنى اسم الشّرط لعمومه » .

نظرت الآية الكريمة السّابقة فى جزئيّتها الأخيرة : ﴿ وما تنفقوا من خيرٍ فإنّ الله به عليم ﴾ إلى الإنفاق من زاويةٍ أخرى هى علم الله تعالى بكلّ ملابساته والجزاء عليه ، وهذه الآية الكريمة التّالية تثنى على المنفقين الّذين تتمثّل فيهم أهمّ متطلبات الإنفاق فى سبيل الله تعالى وتقرّر ثوابهم الجزيل . إنّ هؤلاء ينفقون أموالهم باللّيل والنّهار سرّا وعلانية : « الّذين ينفقون أموالهم بالليل والنّهار سرّا وعلانية » ونستطيع أن نفهم أن الأموال الّتى ينفقون أموالٌ طيّبة ، وهى أموالٌ خاصّةٌ بهم حصلوا عليها بكدحهم وعرق جبينهم . وتمشّياً مع توجيهات الإسلام وتعاليمه المتمثّلة فى القرآن الكريم وفى سنّة المصطفى ﷺ الّتى تقدّم صدقة السّرّ على صدقة العلن هم ينفقون أموالهم فى اللّيل ابتداءً وفى النّهار انتهاءً ، وهم ينفقون أموالهم سرّاً ابتداءً وعلانيةً انتهاءً . والمراد باللّيل والنّهار الإنفاق فى كلّ الأوقات وإنّما كان الحديث عن اللّيل والنّهار باعتبار هاتين الوَحدتين الزّمانيّتين الظّرف الزّمانىّ البارز الّذى تتمّ فيه عمليّة الإنفاق بالضّرورة ، هذا إلى أنّ ذكر اللّيل والنّهار دون غيرهما من الوَحدات الزّمنية الأكبر يعمّق المعنى الّذى تقصد إليه الآية الكريمة من كون الإنفاق يتمّ فى كلّ الأوقات من سواد اللّيالى وبياض الأيّام ، هذا إلى أنّ تقديم اللّيل على النّهار فى الذّكر فيه تعميقٌ لما يحثّ عليه الإسلام من فضل صدقة السّرّ ، وفيه إشادةٌ بهؤلاء المنفقين الّذين يمتثلون أوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم ﷺ .

ومع أنّ السّابق إلى الرُّوع أنّ الإنفاق ليلاً يغلب عليه أن يكون سرّاً فإنّه يصحّ أن يكون علانيةً وجهراً ، ومع أنّ السّابق إلى الرُّوع كذلك أنّ الإنفاق نهاراً يغلب عليه أن يكون جهراً فإنّه يصحّ أن يكون سرّاً وخفاءً ، وكى يزداد اليقين قوّةً يكون صدقة

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٢٥

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٥٥

(٣) البحر المحيط ٢/٣٣١

السّرّ تفضل صدقة العلن لخلوّها من المنغّصات للآخذ ، وكى تشمل كلّ أحوال الإنفاق من سرّ وعلانيّةٍ وما بينهما اضطراراً أو اختيارا ، على غرار شمول كلّ الأوقات بتقديم اللّيل على النّهار مع انتظامهما فى الذّكر ، كى يحدث هذا وذاك تنصّ الآية الكريمة على السّرّ والعلانية . ويستفاد من تقديم السّرّ ما يستفاد من تقديم اللّيل ، هذا إلى أنّ فى تقديم السّرّ على العلانية قوةً لتقديم اللّيل على النّهار . وإنّ فى تقديم اللّيل على النّهار تمشّياً مع ما يغلب فى القرآن الكريم من تقديم اللّيل على النّهار فى الذّكر باعتبار اللّيل أصلاً والنّهار طارئاً عليه . وينبغى أن يكون لأصالة اللّيل فى القدم دوره فى تقديم دور اللّيل على النّهار هنا ، وفى تقديم دور السّرّ على العلانية .

وبسبب تضمّن اسم الموصول : « الّذين » فى صدر الآية الكريمة معنى اسم الشّرط لعمومه دخلت الفاء فى القول : « فلهم » لتضمّنه معنى الجزاء . ومن المعروف أنّ التّلاحم المعنوىّ بعيد المدى بين الشّرط وجزائه ، وهذا هو الّذى نتبيّنه فى الآية الكريمة . ومعنى قوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربّهم ﴾ أنّ لهؤلاء المنفقين أموالهم فى سبيل الله تعالى ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانيةً أجرهم عند ربّهم وثواب أعمالهم يوم القيامة . والّذى يلفت النّظر مجئ لفظ الرّبّ هنا المتصل به اسم الضّمير العائد على المنفقين . ولهؤلاء المنفقين عظيم الشّرف بسبب استعمال لفظ الرّب هنا بالذّات ، لأنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم حينما يكون الموقف أقرب للخصوص ، وحينما يكون الجوّ عابقاً بشذا الرّضا والحنان . وممّا يقوّى من عظيم الشّرف هذا اسم الضّمير العائد إلى هؤلاء المنفقين المضاف إلى لفظ الرّبّ الموحى بتربية الله تعالى عباده وتقلّبهم فى نعمه جلّ وعلا آناء اللّيل وأطراف النّهار .

ولا يقف الثّواب عن تقرير جزيل الأجر إنّما يتجاوزه إلى تقرير الطّمأنينة الّتى يكون فيها أولئك المنفقون المتّقون فى الوقت الّذى يُحْزِن البخلاء والكافرين الفزعُ الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . وعماد هذه الطّمأنينة دعامتان يشملهما القول : ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ إنّهم لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلون بعد الموت فى القبر ويوم يقوم الأشهاد ، وإنّهم لا يحزنون على ما تركوا وراءهم من أهل وبنين

وخلاّنٍ وأموال وما إلى ذلك من متاع الدّنيا القليل لأنّ نعيم الجنّة مقيم وعظيم .

وعلى غرار تقديم الأهمّ على المهمّ بشأن اللّيل والنّهار ، السّرّ والعلانية ، يقدّم الأهمّ : ﴿ ولا خوفٌ عليهم ﴾ على المهمّ : ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ إنّ أهمّ ما يشغل من سيغادر الدّنيا ويلقى وجه الله الكريم هو ما سيقابله فى رحلته العصيبة القادمة . إنّ هذه حقيقة شعور المؤمن فكيف بغيره وقد جاء فى حقّ المؤمن قوله عزّ من قائل[١] ﴿ والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلَةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون ﴾ فإذا اطمأنّ المؤمن إلى قبول الله تعالى أعماله الصّالحة وتفضّل الله تعالى عليه بإزالة خوفه وتثبيته بالقول الثّابت تذكّر ما ترك خلفه فى الدّنيا من أهلٍ وخلاّن ، وتفضّل الله تعالى عليه الّذى أزال خوفه ممّا استقبل بإزالة حزنه لما ترك وراءه واستدبر فى الحياة الدّنيا . وحينما نتبيّن أنّ زوال الخوف متعلّق بالآخرة الّتى هى خيرٌ من الأولى وأهمّ ، وأنّ زوال الحزن متعلّقٌ بالأولى الّتى لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضةٍ وإلاّ لما سقى الكافر فيها شربة ماء ، نستطيع أن ندرك النّظم المعجز الّذى ينظم حبّات معانى الآية الكريمة من تقديم الأهمّ المتمثّل فى اللّيل والسّرّ والآخرة على النّهار والعلانية والأولى . ولا ننسى أنّ القول : ﴿ فلهم أجرهم عند ربّهم ﴾ متعلّق بالحياة الآخرة الأهمّ ، ثمّ إنّه توطئةٌ للحديث عن الآخرة الّذى يتلوه الحديث عن الأولى .

وانظر إلى ترتيب المعانى بجزئيّاتها الدّقيقة فى الآية الكريمة . إنّ اللّيل والنّهار يتقدّمان على السّرّ والعلانيّة لأنّ اللّيل والنّهار ظرفان للإنفاق سرًّا وعلانية . وترتّب على فعل الخيرات فى أجمل الصّور الأجر العظيم عند الله تعالى الّذى يتّجه إلى الآخرة أساساً ويصحّ أن يتحقّق جزءٌ منه فى الحياة الأولى ويتمثّل فى الحياة الطيّبة الّتى أشار إليها قوله تعالى[٢] : ﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ وكان الحديث عن الأجر الّذى يغلب عليه أن يكون فى الآخرة توطئةً للحديث عن نفى الخوف المتعلّق بالحياة الآخرة الأهمّ ، وعن نفى الحزن المتعلّق بالحياة الأولى حياة العمل والنّصب على النّحو الّذى تبيّنّا من قبل .

---

(١) سورة المؤمنون ٦٠

(٢) سورة النّحل ٩٧

[١٨]

تحريم الرّبا والحثّ على الصّدقة

الآيات ٢٧٥ ــ ٢٨١

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ
مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟
فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ
ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

كان الحديث مستفيضاً فى الآيات الكريمات السّابقات عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى والصّدقة ومتعلّقاتهما ، ويتحوّل السّياق فيما يأتى من آيات كريمات فى مجال المال إلى نقيض ما سبق ، إلى الرّبا ، الذّنب الوحيد الّذى أعلن الله تعالى وأعلن رسوله الكريم الحرب على مرتكبه . ويتوّج الحديث عن الرّبا بالحث على الصّدقة وبالأمر بتقوى الله تعالى . وهذه هى أولى آيات هذا القسم .

الآيــة رقــم (٢٧٥)

قال تعالى : ﴿ الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلا كما يقوم الّذى يتخبّطه الشّيطان من المسّ . ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الرّبا . وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا . فمن جاءه موعظةٌ من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . ومن عاد فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ .

الّذين يأكلون الرّبا : الّذين يأخذون الرّبا . فعبّر عن الأخذ بالأكل لأنّ الأخذ إنّما يراد للأكل[١] والمراد يكسبون الرّبا ويفعلونه : وإنّما خصّ الأكل بالذّكر لأنّه أقوى مقاصد الإنسان فى المال ولأنّه دالٌّ على الجشع وهو أشدّ الحرص . يقال : رجلٌ جشعٌ بيّن الجشع وقومٌ جَشِعون قاله فى المجمل . فأقيم هذا البعض من توابع مقام الكسب كلّه . فاللّباس والسّكنى والادّخار والإنفاق على العيال داخلٌ فى قوله : الذين يأكلون[٢] .

والرّبا فى اللّغة الزّيادة مطلقاً . يقال : ربا الشّىء يربو إذا زاد . ومنه الحديث : فلا والله ما أخذنا من لقمةٍ الاّ ربا مِنْ تحتها ، يعنى الطّعام الّذى دعا فيه النّبىّ ﷺ بالبركة .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٥٦

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٦٢

خرّج الحديث مسلم رحمه الله[١] والإرباء الزّيادة على الشّيء يقال منه : أربى فلان على فلان إذا زاد عليه يُربى إرباءً . والزّيادة هى الرّبا . وربا الشّيء إذا زاد على ما كان عليه فعظم فهو يربو رُبُوّاً . وإنّما قيل للرّابية لزيادتها فى العظم والإشراف على ما استوى من الأراضى ممّا حولها[٢] والمقصود بالرّبا هنا : الزّيادة على رأس المال ، قلّت أو كثرت . يقول الله سبحانه : ﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون ﴾ . وهو محرّمٌ فى جميع الأديان السّماوية ومحظورٌ فى اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام . والقرآن الكريم تحدّث عن الرّبا فى عدّة مواضع مرتّبة ترتيباً زمنيّا .

ففى العهد المكّىّ نزل قول الله سبحانه : ﴿ وما آتيتم من رِبًا ليربو فى أموال النّاس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاةٍ تريدون وجه الله فأولئك هم المُضْعِفون ﴾ .

وفى العهد المدنىّ نزل تحريم الرّبا صراحةً فى قول الله سبحانه : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا أضعافاً مضاعفةً واتّقوا الله لعلّكم تفلحون ﴾ .

وآخر ما ختم به التّشريع قول الله سبحانه : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون ﴾ .

وفى هذه الآية ردٌّ قاطع على من يقول : إنّ الرّبا لا يحرّم إلا إذا كان أضعافاً مضاعفةً لأنّ الله لم يبح إلاّ ردّ رءوس الأموال دون الزّيادة عليها وهذه آخر ما نزل فى هذا الأمر .

وهو من كبائر الإثم . روى البخارىّ ومسلم عن أبى هريرة أنّ النّبىّ ﷺ قال : اجتنبوا السّبع الموبقات . قالوا : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : الشّرك بالله ، والسّحر ، وقتل النّفس الّتى حرّم الله إلاّ بالحقّ ، وأكل الرّبا ، وأكل مال اليتيم ، والتّولىّ يوم الزّحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وقد لعن الله كلّ من اشترك فى عقد الرّبا ، فلعن الدّائن الّذى يأخذه ، والمستدين الّذى يعطيه ، والكاتب الّذى يكتبه ، والشّاهدين عليه .

---

(١) تفسير القرطبىّ ١١٥٦ (٢) تفسير الطّبرىّ ٦٧/٣

روى البخاريّ ومسلم وأحمد وأبو داود والتّرمذيّ وصحّحه عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله ﷺ قال : لعن الله آكل الرّبا ومؤكله وشاهديه وكاتبه . وروى الدّارقطنيّ عن عبد الله بن حنظلة أنّ النّبيّ ﷺ قال : لَدِرْهَمٌ ربا أشدّ عند الله تعالى من ستٍّ وثلاثين زنيةً فى الخطيئة . وقال ﷺ . الرّبا تسعةٌ وتسعون باباً أدناها كأن يأتى الرّجل بأمّه(١) .

لا يقومون : لا يقومون فى الآخرة من قبورهم(٢) قاله ابن عبّاس ومجاهد وابن جبير وقتادة والرّبيع والضّحّاك والسّدّيّ وابن زيد . وقال بعضهم : يجعل معه شيطان يخنقه . وقالوا كلّهم : يُبْعَث كالمجنون عقوبةً له وتمقيتاً عند جميع أهل المحشر . ويقوّى هذا التّأويل المجمع عليه أنّ فى قراءة ابن مسعود : لا يقومون يوم القيامة إلاّ كما يقوم . قال ابن عطيّة : وأمّا ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرصٍ وجشع إلى تجارة الدّنيا بقيام المجنون ، لأنّ الطّمع والرّغبة تستفزّه حتّى تضطرب أعضاؤه . وهذا كما تقول لمسرعٍ فى مشيه يخلط فى هيئة حركاته إمّا من فزعٍ أو غيره قد جُنَّ هذا . وقد شبّه الأعشى ناقته فى نشاطها بالجنون فى قوله :

وتصبح عن غِبّ السُّرى وكأنّما ألمّ بها من طائف الجنّ أولق(٣)

وقال آخر :

لَعَمْرُك بى من حبّ أسماء أولق

لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود وتظاهرت به أقوال المفسّرين يضعّف هذا التأويل(٤) .

إلاّ كما يقوم : إلاّ قياماً(٥) وما الظاهر أنّها مصدرية أى كقيام الّذى

---

(١) نقلاً عن فقه السنّة ٣/١٧٦ ــ ١٧٨ وانظر تفسير القرطبىّ ١١٧٢ و ١١٧٣

(٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٧ وتفسير القرطبىّ ١١٦٢ والجلالين والبحر المحيط ٢/٣٣٣ وتفسير ابن كثير ١/٣٢٦

(٣) الأولق : شبه الجنون .

(٤) تفسير القرطبىّ ١١٦٢ وانظر تفسير الطبرّىّ ٣/٦٨

(٥) الجلالين .

وأجاز بعضهم أن يكون بمعنى الّذى والعائد محذوف تقديره إلاّ كما يقومه الّذى يتخبّطه الشّيطان[١] .

الّذى يتخبّطه الشّيطان : يعنى بذلك يتخبّله الشّيطان فى الدّنيا وهو الّذى يتخبّطه فيصرعه[٢] ويتخبّطه يتفعّله من خَبَط يخبِط كما تقول : تملّكه وتعبّده . فجعل الله هذه العلامة لأكلة الرّبا ، وذلك أنّه أرباه فى بطونهم فأثقلهم ، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون . ويقال : إنّهم يُبْعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبَالى[٣] وكلّما قاموا سقطوا والنّاس يمشون عليهم . وقال بعض العلماء : إنّما ذلك شعارٌ لهم يُعْرَفون به يوم القيامة ثمّ العذاب من وراء ذلك . كما أنّ الغالّ يجئ بما غلّ يوم القيامة بشهرةٍ يشهّر بها ثمّ العذاب من وراء ذلك[٤] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : أتيت ليلة أُسْرِىَ بى على قومٍ بطونهم كالبيوت فيها الحيّات تجرى من خارج بطونهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الرّبا[٥] وروى البخارىّ عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطّويل ، فأتينا على نهر ، حسبت أنّه كان يقول أحمر مثل الدّم ، وإذا فى النّهر رجلٌ سابحٌ يسبح ، وإذا على شطّ النّهر رجلٌ قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السّابح يسبح ثمّ يأتى ذلك الّذى قد جمع الحجارة عنده فَيَفْغَر له فاه فيلقمه حجراً ، وذكر فى تفسيره أنّه آكل الرّبا[٦] وتخبّط تفعّل من الخبط وهو الضّرب على غير استواء . وخبط البعير الأرض بأنفاقه ويقال للّذى يتصرّف ولا يهتدى خبط عشواء وتورّط فى عمياء[٧] وتخبّط هنا تفعّل موافقٌ للمجرّد وهو خبط ، وهو أحد معانى تفعّل نحو تعدّى الشّىء وعدّاه إذا جاوزه[٨] .

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٣٤ (٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٧ و ٦٨

(٣) الحَبالى بفتح الحاء جمع الحبلى بضم الحاء وهى الحامل .

(٤) تفسير القرطبىّ ١١٦٢

(٥) تفسير ابن كثير ١/٣٢٦ وانظر تفسير القرطبى ١١٦٣

(٦) تفسير ابن كثير ١/٣٢٦ (٧) البحر المحيط ٤/٣٣٢ (٨) البحر المحيط ٢/٣٣٤

من المسّ : يعنى من الجنون[١] يقال منه قد مُسَّ الرّجل وأُلِق[٢] فهو ممسوس ومألوق ، كلّ ذلك إذا ألمّ به اللَّمم فَجُنّ . ومنه قول الله عزّ وجلّ : إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائفٌ من الشّيطان تذكّروا[٣] .

ذلك : الإشارة بذلك إلى ذلك القيام المخصوص بهم فى الآخرة[٤] .

بأنّهم قالوا : بسبب أنّهم قالوا[٥] .

إنّما البيع مثل الرّبا : فى الجواز وهذا من عكس التّشبيه مبالغة[٦] أى إنّما الزّيادة عند حلول الأجل آخراً كمثل أصل الثّمن فى أوّل العقد ، وذلك أنّ العرب كانت لا تعرف رباً إلاّ ذلك ، فكانت إذا حلّ دينها قالت للغريم إمّا أن تَقْضِى وإمّا أن تُربى ، أى تزيد فى الدّين فحرّم الله سبحانه ذلك وردّ عليهم قولهم بقوله الحقّ : وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا[٧] وجاء فى الكشّاف[٨] : « فإن قلت : هلاّ قيل إنّما الرّبا مثل البيع لأنّ الكلام فى الرّبا لا فى البيع فوجب أن يقال : إنّهم شبّهو الرّبا بالبيع فاستحلّوه . وكانت شبهتهم أنّهم قالوا : لو اشترى الرّجل ما لا يساوى إلاّ درهماً بدرهمين جاز فكذلك إذا باع درهماً بدرهمين . قلت : جىء به على طريق المبالغة ، وهو أنّه قد بلغ من اعتقادهم فى حلّ الرّبا أنّهم جعلوه أصلاً وقانوناً فى الحلّ حتّى شبّهوا به البيع » .

وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا : يعنى جلّ ثناؤه وأحلّ الله الأرباح فى التّجارة والشّراء والبيع وحرّم الرّبا يعنى الزّيادة الّتى يزاد ربّ المال بسبب زيادته غريمه فى الأجل

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٦٧/٣ وتفسير القرطبىّ ١١٦٣ والجلالين والكشاف ٣٠٢/١ والبحر المحيط ٣٣٤/٢

(٢) يقال مُسَّ مَسّاً : صار به مَسّ أى جنون فهو ممسوس . ويقال : أولق إيلاقاً وأُلِق أَلْقاً أصابه الجنون فهو مألوق ومُؤْوْلَق .

(٣) تفسير الطبرىّ ٦٨/٣ وفى البحر المحيط ٣٣٤/٢ : « وأصله من المسّ باليد كأن الشّيطان يمسّ الإنسان فيجنه وسمّى الجنون مسّاً كما أنّ الشّيطان يخبطه ويطأه برجله فيخبله فسمّى الجنون خبطة فالتّخبّط بالرّجل والمسّ باليد » .

(٤) البحر المحيط ٣٣٤/٢

(٥) الجلالين

(٦) الجلالين وانظر البحر المحيط ٣٣٤/٢

(٧) تفسير القرطبىّ ١١٦٤

(٨) ٣٠٢/١

وتأخيره دينه عليه . يقول عزّ وجلّ وليست الزّيادتان اللّتان إحداهما من وجه البيع والأخرى من وجه تأخير المال والزّيادة فى الأجل سواء[١] والبيع فى اللّغة مصدر باع كذا بكذا أى دفع عوضاً وأخذ معوَّضاً . وهو يقتضى بائعاً وهو المالك أو من ينزَّل منزلته ، ومبتاعاً وهو الّذى يَبْذُل الثّمن ، ومبيعاً وهو المثمون وهو الّذى يبذل فى مقابلته الثّمن . وعلى هذا فأركان البيع أربعة . البائع والمبتاع والثّمن والمثمَّن[٢] والألف واللاّم للجنس لا للعهد إذ لم يتقدّم بيعٌ مذكورٌ يرجع إليه كما قال تعالى : ﴿ والعصر إنّ الإنسان لفى خُسْر ﴾ ثمّ استثنى : ﴿ إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ﴾[٣] والألف واللاّم من : ﴿ وحرّم الرّبا ﴾ للعهد ، وهو ما كانت العرب تفعله[٤] وهو الّذى نسخه النّبىّ ﷺ بقوله يوم عرفة لمّا قال : ألا إنّ كلّ ربا موضوع ، وإنّ أوّل رباً أضعه ربانا ، ربا عبّاس ابن عبد المطّلب فإنّه موضوعٌ كلّه . فبدأ ﷺ بعمّه وأخصّ النّاس به ، وهذا من سنن العدل للإمام أن يفيض العدل على نفسه وخاصّته فيستفيض حينئذٍ فى النّاس[٥] .

فمن جاءه : بلغه[٦] .

موعظة : تذكيرٌ وتخويفٌ[٧] ووعظ[٨] وزجرٌ[٩] ووعيد[١٠] .

من ربّه : فى ذكر الرّبّ تأنيس لقبول الموعظة إذ الرّبّ فيه إشعارٌ بإصلاح عبده[١١] .

فانتهى : تبع النّهى ورجع عن المعاملة بالرّبا أو عن كلّ محرّم من الاكتساب[١٢] وانتهى عن أكل الرّبا وارتدع عن العمل به وانزجر عنه[١٣] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٩
(٢) تفسير القرطبىّ ١١٦٥
(٣) تفسير القرطبىّ ١١٦٤
(٤) تفسير القرطبىّ ١١٦٦
(٥) تفسير القرطبىّ ١١٦٤
(٦) الكشّاف ١/٣٠٢ والجلالين
(٧) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٩
(٨) تفسير القرطبى ١١٦٧ والجلالين
(٩) الكشّاف ١/٣٠٢
(١٠) البحر المحيط ٢/٣٣٥
(١١) البحر المحيط ٢/٣٣٥
(١٢) البحر المحيط ٢/٣٣٥ وانظر الكشّاف ١/٣٠٢
(١٣) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٩

فله ما سلف : يعنى ما أكل وأخذ قبل مجيء الموعظة والتّحريم من ربّه فى ذلك[١] لاتِباعةً عليه منه فى الدّنيا ولا فى الآخرة ، قاله السّدّىّ وغيره . وهذا حكمٌ من الله تعالى لمن أسلم من كفّار قريش وثقيف ومن كان يّتجر هنالك . وسلف معناه تقدّم فى الزّمن وانقضى[٢] ومنه سالف الدّهر أى ماضيه[٣] أى لا يستردّ منه ما كان قبل النّهى[٤] عن أبى إسحاق الهمذانىّ عن أمّ يونس يعنى امرأته العالية بنت أبقع أنّ عائشة زوج النّبىّ ﷺ قالت لها أمّ بحنة أمّ ولد زيد بن أرقم يا أمّ المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم ؟ قالت نعم . قالت فإنّى بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محلّ الأجل بستّمائة فقالت : بئس ما اشتريت وبئس ما اشتريت . أبلغى زيداً أنّه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل إن لم يتب . قالت : فقلت أرأيت إن تركت المائتين وأخذت السّتمائة قالت نعم . فمن جاءه موعظةٌ من ربّه فانتهى فله ما سلف . وهذا الأثر مشهور وهو دليلٌ لمن حرّم مسألة العِينة مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقرّرة فى كتاب الأحكام ولله الحمد والمنّة[٥] .

وأمره إلى الله : يعنى وأمر آكله إلى الله فى عصمته وتوفيقه ، إن شاء عصمه عن أكله وثبّته فى انتهائه عنه وإن شاء خذله عن ذلك[٦] وفى الجلالين : « وأمره فى العفو عنه » .

ومن عاد : أى إلى الرّبا بعد بلوغه نهى الله عنه فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة[٧] .

فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون : قال ابن عطيّة : إن قدّرنا الآية فى كافر فالخلود خلود تأبيدٍ حقيقىّ . وإن لحظناها فى مسلم عاصٍ فهذا خلودٌ مستعارٌ على معنى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٩ (٢) تفسير القرطبى ١١٦٩

(٣) البحر المحيط ٢/٣٣٢ (٤) الجلالين وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٦٩

(٥) تفسير ابن كثير : ١/٣٢٧ وانظر الحديث فى البحر المحيط ٢/٣٣٥ وانظر فى العِينة تفسير القرطبى ١١٦٨ وجاء فى تفسير القرطبىّ ١١٦٩ : « وسمّيت عِينةً لحضور النّقد لصاحب العِينة ، وذلك أن العين هو المال الحاضر ، والمشترى إنّما يشتريها ليبيعها بعينٍ حاضرٍ يصل إليه من فوره » .

(٦) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٩ وانظر تفسير القرطبىّ ١١٦٩

(٧) تفسير ابن كثير ١/٣٢٧ وانظر القرطبى ١١٧٠

المبالغة كما تقول العرب : ملكٌ خالد ، عبارةً عن دوام ما لا يبقى على التّأبيد الحقيقيّ[١].

نهى القرآن الكريم عن الرّبا وحثّ على الزّكاة والصّدقة فى آياتٍ كريمات عديدات . ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الروم[٢] : ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا فى أموال النّاس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاةٍ تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ ومن ذلك الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة البقرة . إن الآية الكريمة تبدأ على غرار الآية الكريمة السّابقة باسم الموصول « الّذين » ولكن شتّان ما بين الفريقين فى الصّفات . إنّ كلّ فريق يقف من الآخر على طرف النّقيض . إنّ الفريق الأوّل يتمثّل فى المؤمنين المتّقين المنفقين أموالهم فى سبيل الله تعالى ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية . قال تعالى : ﴿الذين ينفقون أموالهم باللّيل والنهار سرّا وعلانية ﴾ أمّا الفريق الآخر فيتمثل فى المرابين مصّاصى الدّماء الّذين يعلنون الحرب على الله تعالى ورسوله بتعاملهم بالرّبا وإصرارهم على هذا التعامل .

والآية الكريمة تنصّ ــ لحكمةٍ جليلة ــ على صفةٍ من صفات المرابين السّيّئة تبيّن أهمّ مقصدٍ للمرابين من شرههم فى جمع المال ألا وهو الأكل : ﴿ يأكلون الرّبا ﴾ إنّ المعنى ببساطة : الّذين يأخذون الرّبا ، وقد جاء فى سورة النّساء ، بقصد تبيين الأسباب الّتى من أجلها حمل الله تعالى الإصر على بنى إسرائيل وحمّلهم ما لا طاقة لهم به ، قولُه عزّ من قائل[٣] : ﴿ وأَخْذِهم الرّبا وقد نُهُوا عنه وأَكْلِهِمْ أموالَ النّاسِ بالباطل ﴾ وإنّما كان النّصّ على الأكل بالذّات لأنّ الحصول على المال فى العادة إنّما يكون فى المقام الأوّل من أجل الأكل ، ويدخل تحت الأكل كلّ المقاصد الأخرى لأنّها تليه فى الأهمّيّة ، وبطبيعة الحال يرتبط بالأكل الشّراب ، وإنّما يتجاوز فى العادة الشّراب إلى الطّعام لأنّ المرء بدون وجود الماء لا يعيش أصلاً ، فحياته تعنى وجود الماء ضمناً ، ويلى الشّراب فى الأهمّيّة وجود الطّعام . ثمّ إنّ فى النّصّ على الأكل فى حقّ المرابى من بين سائر الأغراض الّتى يُجْمَعُ المال من أجلها تنبيهاً إلى جشع هذا المرابى وشدّة حرصه على المال وعلى اشتماله عليه واحتوائه له فى ذاته ، وليس ثمّة فى الجسد مكانٌ ملائمٌ للجمع والتّحصيل كالجهاز

---

(١) تفسير القرطبى ١١٧٠ (٢) الآية ٣٩

(٣) سورة النّساء ١٦١

الهضميّ الّذى ينبّه ذِكْرُ الأكل فى الآية الكريمة عليه ويشى بدوره البليغ وبمدى حرص المرابى النّهم عن أن يكون ما يحصل عليه من مال لاصقاً به لصوق أحد أجزائه منه ، لذا كان النّصّ على الأكل بالذّات بقصد التّنبيه على الطّبيعة النّهمة والمَعِدَة النّارية والنّفس الّتى لا تشبع والذّات الّتى لا تقنع . ومن المعروف أنّ المال الّذى يحصل عليه المرابى من تعامله بالرّبا إنّما هو عبارةٌ عن دماء الفقراء وعرق الكادحين ورغيف المحتاجين . وبقدر ازدياد الفقراء فقرا يزداد المرابى طمعاً ، وبقدر ازدياد المساكين جوعاً يزداد المرابى شبعاً وامتلاءً وتخمة ، ولا يكاد يكفّ المرابى أو يقلّل من التّحوّل المستمرّ من مائدة الطّعام إلى الحمّام حتّى يخترمه الموت وحتّى يأخذه الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر .

وهؤلاء الّذين يأكلون الرّبا على النّحو الّذى تبيّنّا لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلاّ كما يقوم فى هذه الحياة الدّنيا ذلك الّذى يتخبّطه الشّيطان من المسّ ، وذلك الّذى أصابه الصّرع وقد مسّه الشّيطان الرّجيم بيديه ، وحينما أراد الممسوس أن يقوم من صَرْعه ، وهمّ المجنون أن يفيق من جنونه وأوشك على القيام ، وهمّ بالمشى ، تلقّاه الشّيطان الرّجيم بقدميه ضرباً كيفما اتّفق واستقبله اللّعين برجليه يركله ركلاً وتعقّبه يتخبّطه ويتخبّله ويطوّح به فى كلّ اتّجاه ، فلا يكاد يفيق من مسّه ، ولا يكاد ينجو من ركضه خلفه وركله له بقدميه ، ولا يكاد يعود له عقله ويئوب إليه صوابه ورشده . قال تعالى : ﴿ الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الّذى يتخبّطه الشيطان من المسّ ﴾ والمعروف أنّ المسّ باليد ، وأنّ التّخبّط بالرّجل ، « والخُباط ، بالضّمّ ، داءٌ كالجنون وليس به . وخَبَطَه الشّيطان وتخبّطه : مسّه بأذًى وأفسده . ويقال : بفلانٍ خَبْطَةٌ من مسّ . وفى التّنزيل : كالّذى يتخبّطه الشّيطان من المسّ ، أى يتوطّؤه فيصرعه ، والمسّ الجنون . وفى حديث الدّعاء : وأعوذ بك أن يتخبّطنى الشّيطان أى يَصْرعنى ويلعب بى »[1] ويقال : « قد توطّأته برجلى »[2] .

---

(١) لسان العرب « خبط » .

(٢) لسان العرب « وطأ » .

إنّ المرابى يقوم من قبره يوم القيامة على غير استواء ويمشى على غير اهتداء ، إنّه لا يقوم إلاّ كما يقوم فى هذه الحياة الأولى ذلك الشّخص الّذى مسّه الشّيطان بيده وسلبه وعيه وخلبه عقله وخبله ، وحينما قام كان على غير استواء بسبب ضرب الشّيطان له برجليه ، وحينما مشى كان على غير اهتداء بسبب خبط الشّيطان له وركله بقدميه ، لذا هو يتمايل فى مشيه ويترنّح فى سيره لا يكاد يقوم حتّى يسقط ، ولا يكاد يسير حتّى يهوى ذات اليمين أو ذات الشّمال ، لأن الخبط عنيف ، والرّكل متواصل ، والضّرب مستمرّ . إنّ هذه الأحوال الّتى يكون فيها الّذى يقوم وقد تخبّطه الشّيطان من المسّ ويتخبّطه تقريبٌ للأحوال الّتى يكون فيها المرابى حينما يقوم يوم القيامة من قبره ويكون انتفاخ بطنه انتفاخاً عجيباً دليلاً على الرّبا الّذى امتلأ به فى الحياة الدّنيا وأكل أموال النّاس بالباطل وسبباً لقعوده كلّما همّ بالقيام ، وسقوطه كلّما همّ بالمشى ، وانكبابه على وجهه كلّما همّ بالسّعى . وإلى هذه الأحوال نبّهت الأحاديث النّبويّة الشّريفة فى عذاب المرابين يوم القيامة . إنّ الشّيطان اللّعين قرين كلٍّ من المرابى والممسوس ، وقد قال عزّ من قائل : ﴿ ومن يكن الشّيطان له قريناً فساء قرينا ﴾ وإنّ الحالين المتشابهتين للممسوس فى هذه الحياة الأولى وللمرابى فى الحياة الأخرى ربّما لم يكن للممسوس يدٌ فيها ، أمّا المرابى فإنّه يتعمّد أكل الرّبا ويصرّ عن عمدٍ وسبق إصرارٍ على هذه الأحوال للمرابين يوم القيامة حينما يخرجون من الأجداث .

ومن البيّن أنّ هذا القول : ﴿ الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلا كما يقوم الّذى يتخبّطه الشّيطان من المسّ ﴾ يضع قاعدةً عامّة ويقرّر حالةً لها مثيلٌ واقعٌ فى الحياة الأولى ، دون أن يكون ثمّة حديثٌ عن مرابين بأعيانهم . وفى هذا موعظةٌ غير مباشرةٍ للمرابين موطّئة للوعظ المباشر بعد ذلك فى الآية الكريمة : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربّه ﴾ .

واستمراراً للموعظة غير المباشرة تذكر شبهة المرابين ويذكر القياس الّذى اعتمدوه ويدحض ذلك القياس . فمن هؤلاء المرابون ؟ إنّهم ينتمون إلى غير فترة الإسلام بل إلى إلى الجاهليّة الجهلاء وضلالتها العمياء ، وفى ذلك إيحاءٌ بأنّ من يتعامل بالرّبا ومن يحتجّ

---

(١) سورة النّساء ٣٨

له خليقٌ بأن ينتمى إلى فترة ما قبل الإسلام وحدها . قال تعالى : ﴿ ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الرّبا ﴾ .

لقد انتهى الأمر باعتقاد الجاهليّين سلامة التّعامل بالرّبا أن نزّلوه منزلة الأصل الّذى يقاس البيع عليه وليس العكس . إنّ البيع مثل الرّبا ، وكأنّ لسان حال القوم يقول : إنّ كان ثمّة كلامٌ ينبغى أن يقال فليكن من نصيب البيع ، وبما أنّ البيع لا كلام حوله فمن باب الأولى ألاّ يكون ثمّة كلامٌ عن الرّبا وهو الأصل ما دام ثمّة كلام حول الفرع وهو البيع . إنّ الجاهليّين جادّون فيما يقولون وليسوا هازلين ، وإنّهم لا يرون فرقاً بين بيعك الآن سلعةً قيمتها درهمٌ واحدٌ بدرهمين تأخذهما على الفور وبين بيعك درهماً واحداً بدرهمين آثنين تحصل عليهما فى المستقبل . إنّ نظرةً ساذجةً كهذه يتوقّع منها أن تجعل الرّبا المتمثّل فى الحصول على درهمين آجلاً أصلاً باعتباره أدلّ على النّبل من الحصول عن طريق البيع على درهمين عاجلاً ثمناً لسلعةٍ قيمتها درهمٌ واحدٌ فقط .

إنّ هذه النّظرة الحمقاء من الزّاوية الّتى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب تغفل الأسباب غير الإنسانية الّتى من أجلها حرّمت الدّيانات السّماويّة كلّها الرّبا ومن هذه الأسباب كون الرّبا فى حقيقته مصاً للدّماء وكون المرابين فى الحقيقة مصاصين للدّماء يتنعّمون على حساب عرق الكادحين وكدحهم دون أن يهتمّوا فى قليلٍ أو كثيرٍ لما يوجده سلوكهم غير الإنسانى من حقدٍ دفين فى نفوس المحتاجين ورغبةٍ جادّةٍ فى الانتقام حينما تواتيهم أوّل فرصة ولو تمثّلت فى حركة غوغائيّة تدمّر كلّ شيءٍ أمامها وتأتى على الأخضر واليابس . إنّ القرآن الكريم يبيّن خطل هؤلاء المرابين وخطأهم فى هذا القول التّقريرىّ العامّ : ﴿ وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا ﴾ .

ثم تأتى الموعظة الصّريحة فى يسر ، والتّنبيه الرّفيق فى لطف وذلك فى القول : ﴿ فمن جاءه موعظةٌ من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ ويلاحظ استعمال المجئ بشأن الموعظة ، بمعنى الوصول الفعلىّ والبلاغ ، فهذه الموعظة المتمثّلة فى آى الذّكر الحكيم وفى الأحاديث النّبويّة الشّريفة قد قرعت كلّ سمع ، وملأت كلّ أذنٍ حكمة . كما يلاحظ مجيء لفظ الرّب المتّصل به ضمير الغائب العائد على من جاءه الموعظة من ربّه . ولفظ

الرّبّ حبيبٌ إلى كلّ قلبٍ مؤمن ، وينبغى أن يكون كذلك لدى من جاءه موعظةٌ من هذا الرّب الكريم المربىّ بالنّعم الغامر بالآلاء . ولفظ الرّبّ له الكثير من المعانى الخاصّة به ، فهو يستعمل فى مواقف الخصوص ، وفى مواقف التّنبيه إلى نعم الله تعالى وآلائه الّتى لا تحصى ووجوب قيام العبد بالشّكر لله تعالى عليها بامتثال الأوامر واجتناب النّواهى . وإنّ مواقف الخصوص هذه يوحى بها لفظ الرّبّ، فمن واجب كلّ عبدٍ أن تمتلئ نفسه بين جنبيه بشعور الامتنان للنّعم الّتى تفضّل بها الله تعالى عليه وخصّه بها . وممّا يعمّق الخصوصيّة المتعلّقة بلفظ الرّب اتصال ضمير الغائب العائد على من انتهى عن الرّبا ﴿ من ربّه ﴾ .

وتجاه تلك النّعم الّتى لا تحصى الّتى خصّ الرّبّ جلّ وعلا عبده بها نستطيع أن نتبيّن الدّور البليغ لمقابلة الإحسان بالإحسان فى القول : « فانتهى » والفضل العظيم من الرّحمن على هذا العبد فى القول : ﴿ فله ما سلف ﴾ بمعنى أنّ مرتكب التّعامل بالرّبا قبل أن يعلم بتحريم الله تعالى له ما سلف من تعامل بالرّبا وسبق ومضى وانقضى من أخذٍ غير مشروع لأموال النّاس ، فلا إثم عليه فيما فعل من رباً من ذى قبل ولا يستردّ منه شيءٌ ممّا سبق أن أخذ .

وتنبيهاً فى لطفٍ إلى الحساب بعد مجىء الموعظة يجىء القول : ﴿ وأمره إلى الله ﴾ وهو تنبيهٌ موطّىءٌ للتّهديد والوعيد الشّديدين لمن عاد فتعامل بالرّبا وأصرّ على مخالفة أوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم ﷺ . ومعنى القول : ﴿ وأمره إلى الله ﴾ وأمر من ارتكب جريمة التّعامل بالرّبا قبل العلم بتحريمه إلى الله سبحانه وتعالى . فإن شاء جلّ وعلا ثبّت من تاب عن التّعامل بالرّبا على توبته وقد قال تعالى[1] ﴿ والّذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم ﴾ وإن شاء جلّ وعلا لم يثبّت على الحقّ من سوّلت له نفسه وزيّن له الشّيطان الرّجيم العودة إلى التّعامل بالرّبا وقد قال تعالى[2] : ﴿ ذلك بأنّ الله لم يَكُ مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم ﴾ .

إنّ من عاد إلى التّعامل بالرّبا من حظّه هذا الوعيد الشّديد ، قال تعالى : ﴿ ومن عاد

---

(١) سورة محمّد ١٧ (٢) سورة الأنفال ٥٣

فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ إنّ من عاد إلى التعامل بالرّبا فأولئك أصحاب النّار ، وانظر إلى المعانى البعيدة الّتى توحى بها لفظة أصحاب ، وهم أصحاب من ؟ أصحاب النار وبئس القرار والعياذ بالله . ثمّ هم وراء ذلك خالدون ، كلمّا نضجت جلودهم بدّلهم الله سبحانه وتعالى جلوداً غيرها ليذوقوا عذاب مخالفة أوامر الله تعالى وأوامر رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه . وهذا الخلود فى النّار امتدادٌ لإعلان الله سبحانه وتعالى وإعلان رسوله الكريم الحرب على المتعاملين بالرّبا . إنّها حربٌ فى الآخرة موصولةٌ بحرب الدّنيا . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين رشدهم وأن يوفّقهم للتّخلّص من مرض الرّبا الخبيث إنّه سميعٌ مجيب .

الآيــة رقــم (٢٧٦)

قال تعالى : ﴿ يمحق الله الرّبا ويربى الصّدقات . والله لا يحبّ كلّ كفّارٍ أثيم ﴾ . يمحق الله الرّبا : المحق النّقصان ومنه المحاق[١] لآخر الشّهر إذا انمحق الهلال . وامتحق وانمحق . يقال . مَحَقَه إذا نَقَصه وأذهب بركته[٢] قال ابن عبّاس : يمحق الله الرّبا قال : ينقص[٣] يعنى فى الدّنيا أى يذهب بركته وإنّ كان كثيراً ، روى ابن مسعود عن النّبى ﷺ أنّه قال : إنّ الرّبا وإن كثر فعاقبته إلى قُلّ . وقيل : يمحق الله الرّبا ، يعنى فى الآخرة . وعن ابن عبّاس فى قوله تعالى : ﴿ يمحق الله الرّبا ﴾ ، قال : لا يقبل منه صدقةً ولا حجّاً ولا جهاداً ولا صلة . والمَحق : النّقص والذّهاب . ومنه محاق القمر وهو انتقاصه[٤] والمحق نقصان الشّىء حالاً بعد حال . ومنه المحاق فى الهلال . يقال : محقه الله فانمحق وامتحق[٥] يمحق الله الرّبا أى يذهب بركته ويذهب المال الّذى يدخل فيه .

---

(١) المحاق بتثليث الميم : آخر الشّهر القمرىّ . وقيل ثلاث ليالٍ من آخره .
(٢) مفردات الرّاغب ٤٦٤ (٣) تفسير الطّبرىّ ٣/٦٩
(٤) تفسير القرطبى ١١٧٠ وانظر البحر المحيط ٢/٣٣٦
(٥) البحر المحيط ٢/٣٣٢

رواه أبو صالح عن ابن عبّاس وبه قال ابن جبير[١] .

ويُرْبى الصّدقات : أى ينمّيها فى الدّنيا بالبركة ويكثر ثوابها بالتّضعيف فى الآخرة . وفى صحيح مسلم : إنّ صدقة أحدكم لتقع فى يد الله فيربّيها له كما يربّى أحدكم فَلُوَّه[٢] أو فصيله حتّى يجىء يوم القيامة وإنّ اللّقمة لعلى قدر أحد[٣] قيل الإرباء حقيقة وهو أنّه يزيدها وينمّيها فى الدّنيا بالبركة وكثرة الأرباح فى المال الّذى خرجت منه الصّدقة . وقيل الزّيادة معنويّة وهى تضاعف الحسنات والأجور الحاصلة بالصّدقة كما جاء فى كثيرٍ من الآيات والأحاديث[٤] وفى الحديث : ما نقصت زكاةٌ من مالٍ قطّ[٥] وفى ذكر المحق والإرباء بديع الطّباق . وفى ذكر الرّبا ويربى بديع التّجنيس المغاير[٦] .

والله لا يحبّ كلّ كفّارٍ أثيم : أتى بصيغة المبالغة فى الكافر والآثم[٧] أى لا يحبّ كفور القلب أثيم القول والفعل . ولابدّ من مناسبةٍ فى ختم هذه الآية بهذه الصّفة وهى أنّ المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى فى أكل أموال النّاس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة ، فهو جحودٌ لما عليه من النّعمة ، ظلومٌ آثم يأكل أموال النّاس بالباطل[٨] .

فى الآية الكريمة جمال الشّكل فالمحق بمعنى النّقصان يقابل الرّبا بمعنى الزّيادة هذا إلى جمال الجناس غير التّامّ بين الرّبا ويربى على نحو ما بيّن أبو حيّان . وفى الآية الكريمة وراء ذلك جلال المعنى لأنّ جوهر الرّبا يغاير ظاهره ، ولأنّ جوهر الصّدقة يغاير ظاهرها ، وقد بيّنت كلّ ذلك الآية الكريمة وقرّرته . إنّ الرّبا بمعنى زيادة المال ولكن بطريقٍ غير مشروع تقرّر الآية الكريمة أنّ تلك الزّيادة الظّاهريّة من مال المرابى نقصانٌ فى الحقيقة

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٣٦

(٢) الجحش والمُهْر فِطما أو بلغا السّنة .

(٣) تفسير القرطبىّ ١١٧٠ وانظر تخريج الحديث فى تفسير ابن كثير ١/٣٢٩

(٤) البحر المحيط ٢/٣٣٦

(٥) الكشّاف ١/٣٠٣ وانظر فقه السّنّة ١/٢٧٨ فى التّرغيب فى أداء الزّكاة .

(٦) البحر المحيط ٢/٣٣٦ (٧) البحر المحيط ٢/٣٣٦

(٨) تفسير ابن كثير ١/٣٣٠

والمآل ، فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ويمدّ الطّاغى فى طغيانه وقد يفتح جلّ وعلا عليه أبواب كلّ شيءٍ ويتمادى المرابى فى غيّه ، والطّاغى فى بغيه ، ويأخذه الله سبحانه وتعالى إذا شاء أخذ عزيزٍ مقتدر ، وتئول كثرة المال إلى قُلّ ويغشّى المرابىّ الذّلّ ، وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ يمحق الله الرّبا ﴾ بمعنى أنّه جلّ وعلا ينقصه ويذهب بركته ، ويضاف إلى الخسارة فى الدّنيا والذّلّ فيها الخسران المبين يوم القيامة بسبب إحباط الرّبا الأعمال الّتى ظاهرها الصّلاح فى الدّنيا كالصّدقة والحجّ والجهاد والإنفاق وإن كان فى سبيل الله تعالى لأنّه جلّ وعلا طيّبٌ لا يقبل إلاّ طيباً .

وإنّ الصّدقة فى ظاهرها نقص ، ولكنها فى حقيقتها وجوهرها ومآلها زيادةٌ وكثرةٌ . قال تعالى : ﴿ ويربى الصّدقات ﴾ والمعنى : وينمّى الله سبحانه وتعالى الصّدقات ويبارك لصاحبها فيما رزقه جلّ وعلا . فالصّدقة إن كانت فى الظّاهر وللنّظرة القصيرة العجلى نقصاً لأنّ حجم المال أو عدده ينقص بالفعل ، فإنّها زيادة وكثرة وبركة . فالله سبحانه وتعالى يبارك فى المال المتصدّق منه والمتزكّى ، ويبارك لصاحب الصّدقة فيما أعطاه جلّ وعلا ويعوّضه خيراً ويخلف عليه فيما أنفق ويضاعف له الأجر والمثوبة . فالزّيادة على نوعين ، مادّيّة ومعنوية وقد قال عليه الصّلاة والسّلام : ما نقصت زكاةٌ من مالٍ قطّ ، وقد قال تعالى[1] : ﴿ وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه وهو خير الرّازقين ﴾ وما أكثر الآيات الكريمة والأحاديث النّبويّة الشّريفة فى الحثّ على الإنفاق فى سبيل الله تعالى وتقرير ثواب الله تعالى الجزيل عليها .

وينال على الفور المرابى جزاءه العادل فى الآية الكريمة بينما ينال المتصدّق ثوابه فى الآية الكريمة التّالية الّتى تتحدّث عن المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات . وهذا هو الّذى يخصّ الّذى عاد إلى التّعامل بالرّبا . قال تعالى : ﴿ والله لا يحبّ كلّ كفّارٍ أثيم ﴾ إنّ الكفّار صيغة مبالغة تفيد ما يزيد على ما تفيده صيغة اسم الفاعل كافر من المعانى ، وإنّ الشّىء ذاته يقال عن صيغة أثيم . ومما تفيده صيغة المبالغة تكثير الفعل ، فالكفّار مستمرّ الكفر دائمة ، والأثيم مستمرّ الإثم دائمه . وبشأن المرابى ترتبط صيغة كفّار فى حقّه بمختلف

---

(١) سورة سبأ ٣٩

صيغ الكفر والكفران بمعنى بطر النّعمة ، فهو يكفر نعم الله تعالى وآلاءه وهو لا يبادل الإحسان من الله تعالى إليه بالإحسان بل بالكفران والجحود والنّكران والإساءة إلى عباد الله تعالى . كما ترتبط صيغة أثيم بصور الإثم المختلفة الّتى يرتكبها فى جنب الله تعالى وفى جنب عباده جلّ وعلا . إنّه بالتّعامل بالرّبا وبإصراره على ذلك يصرّ على محاربة الله تعالى ومحاربة رسوله ﷺ . ثمّ هو يحارب عباد الله تعالى المؤمنين الّذين ينصحونه فلا ينتصح والّذين يردعونه فلا يرتدع والّذين يسألونه أن يؤتيهم من مال الله تعالى الّذى آتاه الله تعالى إيّاه فيأبى ، والّذين يستقرضونه فيرفض إلاّ بالرّبا مصّاً لدمائهم واستنزافاً لطاقاتهم واستحواذاً على ثمرات كفاحهم وعرق جبينهم .

إنّ من كانت تلك حاله خليقٌ بألا يحبّه الله تعالى وأن يطرده من رحمته ، ويبعده من بابه وأن يسلبه البركة ، وأن يأخذه أخذ عزيزٍ مقتدر ، وأن ينال يوم القيامة جزاءه الأوفى .

ونستطيع أن نفهم ضمناً وفى المقابل حبَّ الله سبحانه وتعالى للّذين ينفقون أموالهم الطيّبة فى سبيله جلّ وعلا وابتغاء مرضاته عزّ وجلّ وحده لا شريك له والّذين لا يُتْبِعون ما أنفقوا منًّا ولا أذىً والّذين لا يبطلون ثواب نفقاتهم وزكواتهم وصدقاتهم بارتكاب شيءٍ ممّا نهى عنه اللهُسبحانه وتعالى ورسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه . وإذا كانت هذه الآية الكريمة متعلّقةً بالمرابى الكفّار الأثيم فإنّ الآية الكريمة التّالية متعلقةٌ بالمؤمن المتّقى الّذى يأكل المال حلالاً .

الآيــة رقــم (٢٧٧)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

على عادة القرآن الكريم المتشابه المثانى الّذى يتمّ فيه التّحوّل عادةً من المعنى إلى ضدّه ومن الشّىء إلى خلافه يتحوّل السّياق من الحديث عن الكفّار الأثيم إلى المؤمن الّذى يعمل الصّالحات . ويبيّن السّياق أهمّ معالم عمل الصّالحات ممّا له علاقةٌ على نحو من الأنحاء

بالمال المتحصّل عليه من طرقٍ مشروعة ، ويقرّر ثواب هذا المؤمن على غرار تقرير عذاب المرابى وعقابه من ذى قبل .

والآية الكريمة تقرّر أهمّ صفةٍ لهذا الممتثل لأوامر الله تعالى ونواهيه وهى الإيمان ، أى الإيمان بالله تعالى ربّاً وبالقرآن الكريم دستوراً وبمحمّد ﷺ إماماً وسراجاً منيراً . ومعروفٌ أنّ الإيمان اعتقادٌ بالجنان ونطقٌ باللّسان وعملٌ بالأركان ، وأنّ النّطق باللّسان ترجمةٌ لاعتقاد الجنان ، ولكنّ هذه التّرجمة بحاجةٍ إلى الدّليل العملىّ كى يقال إنّها ترجمةٌ دقيقةٌ وصادقةٌ وأمينة ، وهذا الدّليل هو عمل الصّالحات ، ولهذا قرنت الآية الكريمة بين الإيمان وعمل الصّالحات ، ممّا يعتبر دليلاً أكيداً على قيمة العمل الصّالح فى حقّ من أعلن الإيمان : ﴿ إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ﴾ وعلى غرار تقرير صفتين رئيسيّتين هما الإيمان وعمل الصّالحات ، تنتقى الآية الكريمة عملين صالحين رئيسيّين دليلاً على الأعمال الصّالحة الأخرى ، وهذان العملان الصّالحان هما إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة : ﴿ وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة ﴾ والمعروف أن القرآن الكريم فيما يزيد على الثّمانين موضعاً قرن الصّلاة والزّكاة دليلاً على أهمّيّتهما . أمّا الصّلاة فلأنّها عماد الأعمال البدنيّة والعبادات الجسديّة . وأمّا إيتاء الزّكاة فلأنّ الزّكاة عماد الأعمال الماليّة والعبادات فى مجال إنفاق الأموال . والمعروف أنّ الصّلاة عماد الدّين وتنهى عن الفحشاء والمنكر وفاتحة أبواب الخيرات . قال تعالى[1] : ﴿ أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصّلاة ، إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون ﴾ وحينما تنهى الصّلاة عن الفحشاء والمنكر تأمر بالمعروف ، وفى المقدّمة إيتاء الزّكاة . ومن آتى الزّكاة ، الحقّ الّذى فرضه الله تعالى على الغنىّ حقًّا للفقير ومن فى حكمه ، وأعطاها مستحقّها عن طيب نفس ، سمحت نفسه بإيتاء ما وراء الزّكاة ابتغاء مرضاة الله من صدقةٍ ونفقةٍ فى سبيل الله تعالى ونفقةٍ فى السّرّاء والضّرّاء وحين البأس ووقت الحاجة . وممّا تنهى عنه الصّلاة التّعامل بالرّبا ، ومن ثمّ فإنّ المؤمن الّذى تتحدّث عنه الآية الكريمة له عكس صفات المرابى الكفّار الأثيم .

---

(١) سورة العنكبوت ٤٥

وتقرّر الآية الكريمة أجر هؤلاء المؤمنين العظيم عند ربّهم جلّ وعلا الكريم . وانظر إلى لفظ الرّبّ الّذى يشيع جوّ البهجة والانشراح والرّضا ، ويذيع شذا المحبّة والحنان والامتنان ، خاصّةً وأنّ معنى الخصوص يرتبط بلفظ الرّبّ الكريم ، وفى ذلك تنبيهٌ لما خصّ الله تعالى به المؤمنين المتّقين من توفيق تجلّى فى سديد القول وصالح العمل وشكر النّعمة ، ومن فضلٍ منه تعالى تجلّى فى قبوله جلّ وعلا تلك الأعمال الصّالحة . واللّطيف فى الأمر أنّ هذه المعانى المبهجة التى يشعّ بها لفظ الرّبّ وتحفّ به تتوّج باقتران اسم الضّمير العائد إلى جماعة المؤمنين بلفظ الرّبّ الحبيب ﴿ لهم أجرهم عند ربّهم ﴾ وقد وطّئ لهذا الضّمير بضميرٍ من جنسهم فالأجر أجرهم من ربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه وآلائه شاملهم بفضله وإحسانه .

وتقرّر الآية الكريمة صفتين اثنتين متمّممتين لهذا الأجر الجزيل نافيتين لأهمّ منغّصين ، وذلك فى القول : ﴿ ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أمّا نفى الخوف فعمّا يستقبلون ابتداءً بحضور أسباب الموت ومقدّماته إلى الخلود بفضل الله تعالى فى جنات النّعيم فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر وقد قال تعالى[1] : ﴿ الّذين تتوفّاهم الملائكةُ طيّبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون ﴾ وأمّا نفى الحزن فعمّا تركوا وراءهم فى هذه الحياة الدّنيا من مالٍ وأهلٍ وولدانٍ وخلاّن لأنّ الآخرة خيرٌ من الأولى فى حقّ المؤمنين المتّقين . وبفضل الله تعالى ومنّه يكمل نفى الخوف والحزن ويكمل الأجر حينما يشمل الله تعالى بفضله ومنّه أولئك المؤمنين والمتقين بمعانى قوله عزّ من قائل فى سورة الطّور[2] : ﴿ والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء . كلّ امرىء بما كسب رهين ﴾ وقوله تعالى : [3] : ﴿ والّذين صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانيةً ويدرءون بالحسنة السّيّئة أولئك لهم عقبى الدّار . جنّاتُ عدنٍ يدخلونها ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم والملائكةُ يدخلون

---

(١) سورة النّحل ٣٢ (٢) الآية ٢١

(٢) سورة الرّعد ٢٢ ــ ٢٤

عليهم من كلّ باب . سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٧٨)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

بالنظر إلى ما ذكر العلماء فى سبب نزول الآية الكريمة[١] يتبيّن إجادة أبى حيّان القول فى البحر المحيط فى تبيين الحكمة من نزول الآية الكريمة والهدف الّذى ترمى إليــه يقول[٢] : « لمّا تقدّم قوله : فله ما سلف وكان المعنى فله ما سلف قبل التّحريم أى لاتبعة عليه فيما أخذه قبل التّحريم واحتمل أن يكون قوله : ما سلف ، أى ما تقدّم العقد عليه ، فلا فرق بين المقبوض منه وبين ما فى الذّمّة ، وإنّما يمنع إنشاء عقدٍ ربوىّ بعد التّحريم ، أزال تعالى هذا الاحتمال بأن أمر بترك ما بقى من الرّبا فى العقود السّابقة قبل التّحريم وأنّ ما بقى فى الذّمّة من الرّبا هو كالمنشأ بعد التّحريم » .

بعد أن بيّنت الآية الكريمة السّابقة الصّفات الدّالّة على الإيمان وثواب المؤمــنين الجزيل ، بيّنت هذه الآية الكريمة التّالية لأولئك المؤمنين جانباً آخر مهمّاً متعلّقاً بالرّبا ينبغى الفطنة له لخفائه وهو أنّ تحريم الرّبا لا يقتصر على إنشاء عقدٍ ربوىّ جديدٍ بعد التّحريم إنّما ينسحب على ما فى الذّمّة من بقايا العقود الرّبويّة قبل التّحريم . إنّ الرّبا حرام ، يستوى قديمه وجديده فى هذه الصّفة ، قبل التّحريم وبعده . وتثبيتاً للنّفوس المؤمنة على قبول هذا الحكم ومساعدةً لها على التغلّب على تشبّثها السّابق بالمال قبل تحريم الرّبا كى تتخلّص تماماً من كلّ صور الرّبا هى تخاطب بصفة الإيمان بالقول : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ فهذه النّفوس مؤمنة تبعاً لإيمان أصحابها وتصديقهم بالله تعالى ربّاً وبمحمّد ﷺ رسولاً ، كما أنّها تؤمر بتقوى الله تعالى بين يدى أمرها أن تدع ما بقى من الرّبا وتترك ابتغاء ثواب الله تعالى ما لها عند الآخرين من مالٍ عن طريق هذا النّوع المحرّم من التّعامل

---

(١) انظر فى سبب النّزول تفسير القرطبىّ ١١٧١ والكشّاف ٣٠٣/١ والبحر المحيط ٣٣٧/٢ وتفسير ابن كثير ٣٣٠/١ وتفسير الطّبرىّ ٧٠/٣

(٢) البحر المحيط ٣٣٧/٢

بالمال . ومعنى ﴿ اتّقوا الله ﴾ اجعلوا لكم وقايةً تقيكم من عذاب الله تعالى وتكون بينكم وبين عذابه جلّ وعلا أن يصلكم . وهذه الوقاية المعنويّة أعنى تقوى الله تعالى بعمل الطّاعات واجتناب المحرّمات فى مقابل الوقاية المادّيّة فى المحسوسات حينما يجعل المرء وقايةً محسوسة بينه وبين ما يصحّ أن يناله بأذىً فى المحسوسات لو اتّصل مباشرةً بأحد أجزاء جسمه .

ويتبيّن من القول : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أن تقوى الله تعالى وترك ما بقى من الرّبا إنّما يتحقّقان بتحقّق شرطٍ واحد هو أن يكون القوم مؤمنين حقّاً . وهذا يعنى أنّ عدم تقوى الله تعالى دليلٌ على ضعف الإيمان ، وأنّ أخذ ما بقى من الرّبا والتّعامل بالرّبا دليلٌ على ضعف الإيمان كذلك .

وبناءً على الاشتراط فى الآية الكريمة نستطيع أن نفهم أنّ تعامل المسلمين بالرّبا فى أىّ زمانٍ ومكان دليلٌ على كون إيمانهم ناقصاً ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم .

الآيــة رقــم (٢٧٩)

قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون ﴾ .

فأذنوا بحربٍ : فاعلموا بها ، مِنْ أذِن بالشّىء إذا علم به[١] أى كونوا على إذنٍ ، من قولك : إنّى على علم ، حكاه أبو عبيد عن الأصمعىّ . وحكى أهل اللّغة أنّه يقال : أَذِنْتُ به إذناً أى علمت به . وقال ابن عبّاس وغيره من المفسّرين : معنى فأذنوا فاستيقنوا الحرب من الله تعالى ، وهو بمعنى الإذن[٢] وروى أنّها نزلت فى ثقيف فلمّا نزلت قالت ثقيف : لا يدلنا بحرب الله ورسوله[٣] .

---

(١) الكشّاف ١/٣٠٣ وانظر البحر المحيط ٢/٣٣٨

(٢) تفسير القرطبىّ ١١٧٨ وانظر تفسير الطّبرىّ ٣/٧١

(٣) انظر البحر المحيط ٢/٣٣٩

وإن تبتم : فتركتم أكل الرّبا وأنبتم إلى الله عزّ وجلّ[١] ورجعتم عنه[٢]

لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون : قرأ الجمهور الأول مبنيًّا للفاعل والثّانى مبنيّاً للمفعول ، أى لا تظلمون الغريم بطلب زيادة على رأس المال ولا تظلمون أنتم بنقصان رأس المال وقيل بالمطل[٣] أى لا تظلمون بزيادة ولا تظلمون بنقص[٤] روى أبو داود عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى حجّة الوداع : ألا إنّ كلّ رباً من ربا الجاهليّة موضوع ، لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وذكر الحديث ، فردّهم تعالى مع التّوبة إلى رءوس أموالهم وقال لهم : لا تظلِمون فى أخذ الرّبا ولا تُظْلمون فى أن يُتَمسَّك بشيءٍ من رءوس أموالكم فتذهب أموالكم[٥] .

الآية الكريمة مبنيّةٌ على سابقتها ومترتّبةٌ عليها خاصّةً وأنّهما نزلتا فى مناسبةٍ واحدة ، فى ثقيف . ونستطيع أن نفهم ارتباط الآية الكريمة بسابقتها على هذا النّحو : يا أيّها الّذين آمنوا ذروا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا ما أمرتم به و لم تدعوا ما بقى من الرّبا أو أنشأتم ربًا جديداً ففى ذلك الدّليل على أنّكم غير كاملى الإيمان وأنّ فى إيمانكم دَخلاً وأذنوا بحربٍ من الله ورسوله واستيقنوا بهذه الحرب من الله تعالى ومن رسوله الكريم ﷺ بسبب عصيانكم أمر الله تعالى وأمر رسوله الكريم عليه صلوات الله وسلامه . وإن تبتم أيّها المؤمنون عن أخذ ما بقى من الرّبا و لم تنشئوا رباً جديداً فاعلموا أنّ دين الإسلام يحفظ لكم حقوقكم كاملةً غير منقوصة فلكم أيّها المؤمنون رءوس أموالكم بالتّمام والكمال لا تظلمون الآخرين بزيادةٍ عن رأس المال تأتى فى هيئة الرّبا بسبب الإفساح فى الأجل ولا يظلمكم الآخرون بنقصٍ من رأس المال الّذى دفعتموه إليه قرضةً حسنةً لوجه الله تعالى .

بقى أن نعرف أنّ الرّبا هو الذّنب الوحيد الّذى أعلن ربّ العزّة وأعلن رسوله الكريم

---

(١) تفسير الطّبرى ٣/٧٢

(٢) الجلالين .

(٣) البحر المحيط ٢/٣٣٩ وانظر تفسير الطّبرى ٣/٧٢

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير القرطبى ١١٧٣

الحرب على مرتكبه . ونستطيع أن نفهم الحرب المعلنة من الله تعالى ومن رسوله الكريم على مرتكبى كبيرة الرّبا بعد أن بلغهم حكم الإسلام فيما حلّ ويحلّ بالمسلمين فى هيئة الأفراد والجماعات المتعاملين بالرّبا من خسرانٍ فى حقّ الأفراد والجماعات . وهل هذا القحط الّذى حلّ بالكثير من البلاد الإسلاميّة والحروب الّتى لا تكاد تطفأ الواحدة حتّى توقد الأخرى ، وهل الفقر المدقع الّذى حلّ فجأةً بأفرادٍ وجماعاتٍ تتعامل بالرّبا بعد الغنى الّذى كانت فيه إلاّ مظاهر للحرب الّتى أعلنها الله تعالى فى كتابه العزيز وعلى لسان رسوله الكريم على آكلى الرّبا ؟ ألم يقل الله تعالى فى محكم كتابه[١] : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسكم شِيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ ؟ ألا يذيق المسلمون اليوم بعضهم بأس بعض ؟ أليس من أسباب ذلك إعلانهم الحرب على الله تعالى وعلى رسوله الكريم بسبب التّعامل بالرّبا ؟ ألم يقل الله تعالى فى حقّ هؤلاء الظّالمين فى سورة الأنعام[٢] : ﴿ وكذلك نولّى بعض الظّالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ ؟

ونستطيع أن نفهم من فحوى الآية الكريمة أنّ هذه الحرب المعلنة من الله تعالى ومن رسوله الكريم على آكلى الرّبا تتمثّل فى الحرب المشتعلة دائماً بين طبقات المجتمع الرّبوىّ ، يستوى فى ذلك المجتمع المسلم وغير المسلم بطبيعة الحال . إنّ من يقترض مالاً ينبغى أن يكون محتاجاً إليه بعكس من يسأل الصّدقة مثلاً فمن الجائز ألاّ يكون محتاجاً حاجة المستدين . وهذا الّذى يبحث عمّن يقرضه حينما لا يجد إلاّ فرصة الحصول على القرض برباً ما هى حقيقة شعوره تجاه الفرد الّذى يقرضه على هذا النّحو أو الجماعة . إنّه شعور البغض والكراهية والمقت لأنّه على علمٍ بأنّ هذا المقترض حريص على مصّ دمه وبأنّه سوف يعيد لمن أقرضه المال الّذى اقترضه وعليه زيادة الرّبا . وهذه الزّيادة الرّبويّة ليست سوى دمه الّذى احترق فى سبيل جمع المال وعليه الزّيادة الرّبوية ، وليست سوى حبّات العرق الّتى سال بها جبينه دليلاً على تعبه ونصبه وكدحه . إنّ آخذ الرّبا يمصّ دمه

---

(١) سورة الأنعام ٦٥ (٢) الآية ١٢٩

ويسرق حبّات عرقه ويسلبه ثمرة كدحه فتمتلىء نفس المدين غيظاً من الدّائن وقلبه حقداً عليه وحرصاً على تربّص الدّوائر به . وهكذا تكون العلاقة بين الأفراد والجماعات فى المجتمع الرّبوىّ، علاقة تربّص كلّ فريق بالآخر الدّوائر ، فلا مكان للرّحمة ولا للشّفقة ولا للعطف من قبل الغنى على الفقير ، ولا مكان للاحترام ولا للمحبة ولا للإكبار من قبل الفقير للغنىّ، لأنّ العلاقة بين الفريقين قائمةٌ على وسيلةٍ واحدةٍ فقط ، هى مصدر فرقةٍ بأكثر من كونها مصدر ألفة ، ألا وهى المال الّذى يدفعه الفقير فى هيئة الرّبا وهو يحسّ فى أعماقه بالظّلم والغبن الفاحشين ، والّذى يأخذه الغنىّ دون بذل شيءٍ من مجهود . وهكذا تكبر الهوّة بين الفريقين ويتّسع الخرق على الرّاقع ، وربّما انتهى الأمر إلى حربٍ فعليّة بين الفريقين ، هى فى حقيقتها مظهرٌ من مظاهر الحرب المعلنة من الله تعالى ورسوله الكريم على مرتكبى كبيرة الرّبا .

وإذا كانت العلاقة فى المجتمع الرّبوىّ بين الدائنين والمدينين علاقة حرب فإنّها فى المجتمع المسلم غير الرّبوىّ علاقة محبّة وانسجام ووئامٍ وتعاطفٍ ورحمة . وكلّ ذلك ثمرةٌ طيّبة لمنهج القرآن الكريم التّربوىّ لهذه الأمّة المسلمة والّذى تتجلّى بعض مفرداته الّتى تربّى عليها أفراد الأمة المسلمة فى الآية الكريمة التالية .

الآيــة رقــم (٢٨٠)

قال تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرةٍ فَنَظِرةٌ إلى مَيْسَرَة . وأن تَصَدّقوا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

وإن كان ذو عسرة : ارتفع ذو بكان التّامّة الّتى بمعنى وجد وحدث ، هذا قول سيبويه وأبى علىّ وغيرهما . وأنشد سيبويه :

فِدًى لبنى ذُهل بن شيبان ناقتى إذا كان يومٌ ذو كواكب أشهبُ[1]

ويجوز النّصب . وفى مصحف أبىّ بن كعب وإن كان ذا عسرة على معنى وإن كان

---

(١) وصف يوماً من أيّام الحرب بالشدّة ونسبة إلى الشّهبة ربّما لكثرة السلاح والغبار .

المطلوب ذا عسرة[١] والعسرة : ضيق الحال من جهة عدم المال ، ومنه جيش العسرة[٢] يعنى معسراً[٣] وذا إعسار[٤] .

فنظرة إلى ميسرة : عامّةٌ فى جميع النّاس ، فكلّ من أعسر أُنْظِر ، وهذا قول أبى هريرة والحسن وعامّة الفقهاء[٥] وقرأ الجمهور : فَنَظِرةٍ على وزن نَبقة[٦] والنّظرة : التّأخير[٧] وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن : فنظْرةٌ بسكون الظّاء وهى لغة تميميّة وهم الّذين يقولون فى : كَرْم زيد بمعنى كَرَم زيد ، ويقولون : كبْد فى كَبَد[٨] وإنظار المعسر تأخيره إلى أن يوسر[٩] أى فالحكم أو فالأمر نظرةٌ وهى الإنظار[١٠] أو الواجب على صاحب الدّين نظرةٌ منه لطلب الدّين من المدين إلى ميسرة منه[١١] أو فعليكم أن تنظروه إلى ميسرة كما قال : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففديةٌ مِنْ صيام ﴾[١٢] أو المطلوب نظرةٌ إلى ميسرة[١٣] .

والميسرة : مصدر بمعنى اليُسْر[١٤] وبفتح السّين وضمّها أى وقت يسر[١٥] ويسار . وقرىء بضمّ السّين كمقبرَة ومقبُرة ومشرقة ومشرُقة[١٦] ويقول الطبرىّ[١٧] : والميسرة المفعلة من اليسر مثل المرحمة والمشأمة » وما أكثر الأحاديث

---

(١) تفسير القرطبى ١١٨١
(٢) تفسير القرطبىّ ١١٨١ والبحر المحيط ٢/٣٤٠
(٣) تفسير الطّبرىّ ٣/٧٢
(٤) الكشّاف ١/٣٠٣
(٥) تفسير القرطبىّ ١١٨٠ وانظر البحر المحيط ٢/٣٤١
(٦) البحر المحيط ٢/٣٤٠ وتفسير القرطبىّ ١١٨١
(٧) تفسير القرطبىّ ١١٨١ والبحر المحيط ٢/٣٤٠
(٨) تفسير القرطبىّ ١١٨١
(٩) تفسير القرطبىّ ١١٨٣
(١٠) الكشّاف ١/٣٠٣
(١١) البحر المحيط ٢/٣٤٠
(١٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٧٣
(١٣) تفسير الطّبرىّ ٣/٧٣
(١٤) تفسير القرطبىّ ١١٨١ والبحر المحيط ٢/٣٤٠
(١٥) الجلالين
(١٦) الكشّاف ١/٣٠٣
(١٧) تفسير الطّبرىّ ٣/٧٣